إعداد عبده حقي

من أجل ثقافة مغربية رقمية تواكب العصر

مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة

حروف الفقدان

مجموعة قصصية

عبده حقي

www.ueimarocains.com

سلسلة إصدارات إلكترونية

جميع حقوق النشر محفوظة

حروف الفقدان

مجموعة قصصية : إصدار إلكتروني

الكاتب المغربي :عبده حقي

صدرله :

ورقيا : ـ "حروف الفقدان" مجموعة قصصية سنة 2008

ـ "زمن العودة إلى واحة الأسياد" رواية سنة 2010

إلكترونيا : ـ "مفهوم النص في الأدب الرقمي" في جزأين

ـ "ماماغولا" مجموعة قصصية

ـ مقالات وترجمات في النقد وتكنولوجيا المعلومات والإتصال والصحافة الإلكترونية نشرت في مختلف الجرائد المغربية والعربية

ـ مديرومنسق موقع إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة

ـ رئيس لجنة الإنترنت والعلاقات الرقمية في إتحاد كتاب الإنترنت العرب

www.ueimarocains.com

عن سلسلة منشورات مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة الإلكترونية

جميع حقوق النشر محفوظة

2013

حروف الفقدان

مجموعة قصصية

الكاتب المغربي

عبده حقي

سلسلة إصدارات إلكترونية

عن مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة

يونيه 2013

جميع حقوق النشرمحفوظة

حررف الفقدان مجموعة قصصية

عبده حقي

لوحة أندري لوت

الإهداء

إلي ظل شجرة القرابة : أمي

إلي إمتدادي في الرمزوالوجود : فاطمة وياسين

إلي قنديل السرد العربي : يحيى حقي

إلي كل الكتاب المبدعين

إلي كل الصديقات والأصدقاء

كتابا ونقادا وقراء

أهدي هذه القصص

من الألف إلي الياء

الفهرسة

1 ـ مدارج البيت العتيق

2 ـ خلوة رفيعة

3 ـ أوراق من تحت الردم

4 ـ we are the world

5 ـ الكاتب

6 ـ الفنان .. كوميديا قصصية

7 ـ زهرة النيلوفر

8 ـ علبة بيتهوفن

9 ـ حروف الفقدان

10 ـ جسد وظل على خط الإستواء

11 ـ ناتالي

12 ـ شارب الإبنست

13 ـ سوناتا من قبل هذا المقام

14 ـ أراجيف الوسادة

15 ـ كأس نزارقباني

16 ـ في إنتظارالسيد PDG

مدارج البيت العتيق

ألفاهم قد رتبوا في ليل غيابه اوراق رحيلها... أما هي فقد باتت هناك في منسكها تغسل يديها من مكابدات العمر... متدثرة في إستارتها البيضاء المنسوجة بأنامل ملائكة مخفورة.. كانت تحصي ما تبقى من لحظات العمر.

هنا كان يتلمظ رغيف فطام متأخر.. يمزج كأس خطوها الفادح بالدمع الفائر. . وعلى جناح الطهر كانت ترمقه وتعلن له بالصمت عن زمن آت سوف يستودعه فيه الإنتظار إلى شرفة الترقب...كان التردد يستبد به وبها .. يوزعه بين الرغبة في الصد وبين رحيلها الطارئ الى مطافات الخلق المكين، وعلى مقربة من السلالم كانت الحقائب تتربص بها وحذاؤها للخطو الكبير يغريها بالرحيل ...

الوصايا تتشابك على الشفاه الواجمة.. بريق نظراتها يبلله بدمع التوسلات.. فجأة وجد نفسه متواطئا وحذرا في آن.. تصاريف الدهرهناك .. ذرف ما يكفي على كتفها الوراف.. كان يعبر الى جانبها الشارع الليلي المقفر.. وكانت هي تقتلع آخر الخطوات بتوجس بالغ...

كانت تحدثه وقسمات وجهها كأنه يوشك على البكاء . فجأة صارت الأسارير أخاديد لدمع مداهم.. حين ودعها في الناقلة كان مرة ينقرعلى زجاج الإغاثة ومرة يومئ لها بما يعتصر القلب من رعب خطوها الكبير.

رأى من حوله أطياف متلفعة في دثارالبدء .. ساحة محفوفة بأشجار التين والزيتون .. نظرات للدهشة.. واللغط يعلو كلما دنا موعد العناق الاخير.

كان النداء بالأسماء إعلانا ليتمهم المؤجل .. همس له جارقديم (لاتكثرت بالفراق ، ففي تلك الأكناف للسكينة خيمة بحجم السماء.)

كانت أرواح الذين رحلوا مترجلين أو على صهوات الفتوحات تتقد في ذاكرتها وتفتح دفتيها على تاريخ مغسول بدم القداسة... رنا الى الشارع الممتد أمامه في صمت رهيب.. أعمدة النيون عقد متألق على هامة الفجر.. وجدها تعبر هذا الارتداد التاريخي وهو يلوح لها بمديله عبر نافذة الإغاثة ويلاحق كالمخبول طيفها بالنظرة الواجلة.. حين صحا من دوخته الفاها قد مرقت مثل نيزك في أمداء السماء.

في لحظة ما .. خفتت الجلبة.. الفجيعة التي نمجد فيها زمن الفراق.. وصارت بعدها كل المرئيات تهفو إلى التمثل بطيفها والبوح بأسمائه المتعددة.

عاد وحيدا يقطع البيداء في ليل الغياب.. وينحث تماثيل لرجال شيدوا جسرا للبيت العتيق.. كان يحيى غربتين: غربته هنا وغربتها هنالك... كيف عن لجسدها الواهن أن يركب هذا الجناح الواثق ويتركه لاستيهامات الارتياب على شرفة الإنتظار...؟

يذكرأنها كانت تنتفض بالهجران خلسة في فجر اللأعياد وحين كانوا يستفيقون بعدها يلفون فراشها مقصوص الجناح فيدرعون الدروب .. يسائلون أبواب الجارات عنها ثم يعودون وقد أيقنوا أنها قد اقتصت من سياط السقف بمكيدة الهروب...

كانت صورتها تؤاصره في الحظات لفقدان .. عمقها الأزرق.. بريق عينيها .. إهاب وجهها الذي تملى فيه معنى الكينونة...

ها هم الليلة جميعهم ينسجون حول طيفها حكايا رائقة .. يرفعون السماعة و يتوسلونها لها أن تغمرهم بصوتها الرؤوم .

مضى شهر ونصف.. ما أقسى أن يمرالعمر إلا شهرا ونصف.. جربوا فيه كل أنواع اليتم ورأوا كل تجليات الفقدان.

ليلة عودتها ، بات مسهدا كان يحصي بالنبض دقائق اللقاء.. فجأة رن الهاتف وأنبأه صوت ما عن موعد هبوط الطائرة .. صعد إلى السطح يترقب سريانها .. فرأى الأزل.. كل الأزل المهيب.. الأسطوري والغامض .. عتمة تطبق على حفافي المدينة.. كان في القلب شئ ما.. مثل لهاث دافئ عبق بأرواح النزول من ملكوت مدارج البيت العتيق... أحس أن كل الأزل قد نهض من رقاده وتهيأ له أنهم يرتعون خلفها في دروب السماء بأجنحة ملائكة صغيرة .. نورانيات وشفيفات.. يفتشون عن طيفها بين نثار الكواكب والنجوم..

صاروا يترنون بإمعان.. هو وحده كانت يداه مشتبكتين خلف ظهره .. يقطع السطح جيئة وذهابا وكأنه أكتشف للتو هذا العالم الملغز بعيني صبي ممسوس بالدهشة الأولى.

فجأة لمح مقصورة مضيئة تخترق الديجور وكاد يهتف للعالم أي أنها نازلة عبر درب الانبياء ...

هذا إذا فجر آخر يزحف مسكونا بالأسرار ...

انشق صدر السماء عن شعاع أبى إلا أن يترنم معه بالشدو ويرجع بالغناء نشيده الصباحي.

شرعت الاطياف المتعبة تهل عليهم من البوابة العريضة .. فجأة لمحها وشعر برغبة العمر الوحيدة في البكاء.. كانت رافلة في نصاعة المدارج السماوية .. تجر خلفها تعب الوهن والرحيل .. قال في نفسه : ياه ما لوجهها قد صار قمحي الإهاب.. لعله لون البدء الذي ينشده صلصال الخلق.

ضمها إلى صدره ..ضمها كثيرا .. كثيرا وكانت نظراتها هائمة في المرابع الخضراء.. وبيمينها سبحتها المرصعة بخرزات "الفيرونج" .. وهما يقولان ": سبحان الله"..سبحان الله..سبحان الله ..

خلوة رفيعة

من خلل السقف القصبي الواهن .. أصخت الى سعاله القديم ، يتسرب الى آذان المساء ، شبيها بخوار أيل جريح.

قلت في نفسي وأنا أقلب أوراق كتاب مغبر: كيف يجرؤ على هذا الانبعاث الفينقي وبهذا الصوت

المكلوم .. مع أنه لم يحدث فيما أذكر أن نبس في وجهي يوما ما ؟

لقد كان كعهدي به بين الهضاب القفر والنجود الجرذاء الا من أحراش الشيح ، صموتا منتصبا كأي سارية عتيقة تساوعها الرياح المتوحشة في عزلة خلاء مطلق ويكمن في هيكلها هدير التاريخ...

والآن .. أتنصت الى كعب حذائه ، يطرق بحدة على سطيحة السقف الواهن .. في هذا البيت المعزول .. تحت أقدام الجبل الشاهق.

أتسمع للازمته تدوي بايقاعها القضب.. فاعلاتن .. فاعلاتن.. فاعلاتن...

_أتراه قد نهض في هذا الهزيع ليتابع سرد حكايته المحفوفة بالغرابة وخوارق الأزمنة القديمة...

أجدني مرتبقا أكثر من ذي قبل الى أشيائه.. ظله .. زفراته .. ايماءاته المغمورة بهذيان الحكماء الذي يخيل الى جليسه كما لو أنه منعتق من شفتين تحللتا فجأة من أنشوطة عنيدة.

أبعد كل هذه السنين يردم حيطان هذا التكتم الملغز ويفتح لي صندوقه القديم المرصع بالماس والمصوغات الفضية..

كنت ألفي طيفه يندس في كل التشكلات المرئية ، العابرة منها أوالرابضة مثل شجرالعرعارهناك وهناك . شفتاه الرفيعتان ، عيناه الجمريتان اللتان كحلهما الإمعان الطويل في لذغات العمر .. يده الكبيرة .. اليد الكبيرة المتشققة.. التي تبدو ساعة تعرقها رافلة في لألأة المعجزات...

يجمل بك الآن أن تفصح عن انتفاضك في أغوارالنفس ، ويجمل أيضا بطيفك أن يسمعني ملاحمه القديمة ؛ فقد يكون للطيف ذاك البوح الأبلغ من هتاف الجسد...

أذكر.. كان يمرق مثل النيازك ، مقداما كما عهدته ، من عقال الجبل الشاهق .. حارس التضاريس المعزولة ،المتمنطقة بالأسبلة السريالية ، يعارك الشواهق العنيدة .. أعزل .. عليه دائما جوخه الصوفي الذي تفوح منه رائحة عرق المعارج المترية ، وحذاؤه المخروم قد خبرالشعاب والفجاج حصاة حصاة حتى خمنا أن للحذاء عقيدة لا يدرك حكمتها سوى الجوالين الساهمين على حد الغواية.

وعلى شفيرالحافات كان يحتبي .. واحتباؤه استراحة محارب أو مجذوب ضليل ..كيما يستغورعوالمه الباطنية أو يتلهى بذرالرماد على قروحه بالساق.

إنه ما يزال يتشمم رائحة الحرائق في غابة العرعار ويتسمع بمضاضة لشخيرالمناشير خلفه وهي توقع سمفونية الذبح على كمنجات الجذوع.

على عتبة البوابة العريضة ذات الصخورالصقيلة التى دحرجتها الهزات في عصورالتكوين .. كان يقف ليتملى المجاري المتفرعة وحوافرأعقاب العكازات وسنابك الخيول؛ ثم يخترق عين السورالعالي ، ومع ذلك لا أحد منا كان يعلم بمروقه المخفورالذي يشبه إسراء نسيم حثيث ، يدمدم بلغو مبهم قلما يشوبه كلام معلوم . كان يمرق وكنت أرقبه من بعيد ؛ يسكنني وهو شارد في تلك المسالك المفضية إلى قمة الجبل السامق حيث يتثائب المدشرعلى الحيزوم مثل لوحة من لوحات الرسام دولاكروا...

ولم أكن أعلم أنه كان يوزع أيامه تحت بحيرة أسطورية تستلقي على كتف الجبل العالي ؛ ولا مراء أنه كان أدرى بانوجاده هناك لأن العطش الذي كان يذكي جحيمه الجواني جعله مثل طائرالبجع يهتدي إلى الترعات المائية بالغريزة.

لم يكن يعبأ بغضب الإنجرافات التي طمست غيرما مرة أحواض الشعير والذرة وعرصات اللوز والأراكة.

ولما كان الرعد يقصف ، كانو يأوون الى الأدراج الجبلية أو يتسربون كالنمل إلى المكامن الدفينة حتى لاتدهسهم عربات الجلاميد النافرة ، أما هو فقد كان يصعد مثل نبي ، يعب شرابه .. كأسه التي تبترد بها غلته..بانتشاء وازدراء بما يمكن أن يحدث ومتى شاء أن يحدث .. غير أن لاشيء من هذا حدث مذ وطئ هذا المدشر في نزوحه الغامض متدحرجا كحصاة لقيطة دون أن يستديرولو مرة واحدة إلى الوراء...

ولم يكن عبور غريب هناك أمرا مألوفا على تخوم السفح الممتد إلى أقدام المدينة ... حينما نزل هو بهذا المدشر مثل عابرسبيل في بداية الأمرأمسى وليمة لنميمة سرعان ماتناثرت كالنباتات المتوحشة..

و أمسى أيضا ملهاة لطي المسافات على صهوات الغدو والرواح ؛ ربما لأنه كانت تبدوعليه سيماء خبل المجاذيب الملتحفين في أردية الصوف .. الذين كانو في عصرالانهيارات يضربون في أرض الله .. هائمون في مفاوزالشرود.. حفاة ..يبحثون عن قبس الكرامات وآلام المجاهدات...

ربما شبه لهم ولذا كانوا على الأقل يطعمونه تينا وشعيرا على نوراللمبات أوالقناديل الزيتية ، متلمسين في تجاعيد محياه أسرارطالعهم...

كان يرتق الرحيل برحيل آخر، لعل الهامة تسطع بشمس الاشراق وتلتئم أشلاء الجسد الذي نهشته رياح الشهوات .ولاشك أن سهومه في أقصى ملاذات الخلوة كان إعلانا بذات الشكل عن حكاك ما ضدا على اندحارالنفس وتحطيم مرآة الروح بمعاول اللذة ... لذا كان المفرحيث لا أحد ولا جحيم ، ضربا من ضروب الاحتجاج الروحي بتشريد الجسد الآبق.

ترى ماذا خسرهناك ، خلف هذه الأطواد وبأية غواية أبحرإلى أرخبيل هذه العزلة القاسية؟؟

متى ما فكرفي أمره ، كان يحتد هذيانه فيلتف على نفسه بنفس الكلام ورجع الصدى .. يعب شرابه المقدس ويهمل السؤال.

أذكر كان مساءا باردا ،قارسا وقاسيا جدا ،وكان نداؤه البعيد يستدرجني كالمتسرنم إلى مأواه الرهيب ، هناك على حيزوم الجبل العالي... جعلت فجأة أنمق الكلام وأرجع لازمة بعناية الاطفال فبدا لي مقتعدا

في ظله صخرة صقيلة ؛ حين رفعت عيني رأيت سحابة قيد التشكل على هيأة حصان خرافي يحوم في زهو رائق بين قطعان الغيم النحاسي ؛ مرة أخرى وكما هي عادته لم يعبء بقدومي ، مثل صخرته كان ، لا تعبأ هي أيضا بإزميل الوقت ولابتمسح أيادي السقاءات المتختمات بالأساورالوازنة.

دلفت كأني ألج معبدا قديما .. فجأة رمقت وجهه .. نفس الأسارير والقسمات التي رسمتها في مخيالي ألسنة الأهالي...

داهمني وقتئذ انتشاء عارم في انفراج محياه ولمست فيه بعض هناءة ، فصرت أتردد بين افتتاح الكلام وبين التملي المنبهرفي وجهه المجلل بالإناس وفك طلاسمه التي أمست لغتها تضج في أعماقي..

كنت أفكروأنا منتصب أمامه في عزلته الرفيعة ، أسترق النظرة من خلفه الى مأواه المعتم .. مغارة على مقاس منفذ الجسد بالكاد ؛ كأنما نحتتها أصابعه التي تشبه ثمرات البلوط . ومن دون أن ينبس ناولني قدحا من شرابه المقدس .. هوخليط لبعض البهارات والأعشاب البرية . فعجبت لصنيعه الغريب حين شعرت بدم فائريضخ في أعماقي ثم بتلاطم الكلام في زفراته وارتجاج صدره . كنت أنقل ناظري بين وجهه الملفوح وبين جوف المغارة .. فجأة لمحت تلألؤا يمورفي مصوغات الصندوق القديم خلفه هنالك في عمق مغارته ..تلأ لؤا كان يزداد التماعا كلما أمعنت النظر فيه ، فساورتني رغبة في الدنومنه ؛ ثم رنوت إليه فيما يشبه الاستئذان فوجدته منشغلا في عد أيامه على أصابعه التي تشبه ثمرات البلوط .. وفي لحظة سهو مني توارى خلف صخرته وكأني بوقع قدميه تجلجلان في جوفها قلت : أتسمعني أيها الشيخ ، ما الفرق بين جوزة السروتفاحة المعرفة ؟ فكلانا على سبيل الإدراك تائه...

اثرئذ شممت رائحة دخان تلاها قرع طبول ودفوف في الدغل .. لمحته يظهرويختفي بين أيك العرعار ، حاملا صندوقه على كتفيه العريضين الضامرين ويركض .. يركض .. وكان جسده يكبر .. يكبر .. ويشتبك بالأشجار ، وبدا لي أخيرا أنه صارشجرة...

أوراق من تحت الردم

كانت فوق كفه العريض
مدينة بلاخرائط..
ليال بلاأحلام مبيتة..
وأشجارأرز توزع ظلالها
على شرفات الشرق والغرب بلاحساب...
وحدها سترة خليل أمامي الآن على جداريحرس انحناءه .. ذكرى فرح أفسدت دبكته نيران صديقة فيما سلف...
عرفته في باريس.. كان يعشق فيروزوقصائد نزار وجوازات السفر.. مثل طائرالدوري عرفته هناك ..
كان يردد علينا دائما في مقهى (لوريون) بالحي اللاتيني : أيها الرفاق متى نصيركالبحربلاخرائط وبلا ألغام بيننا على الحدود...
صيف ليس ككل الأصياف ... شمس (جويليه) تقذف بحممها على الجنوب. لافرق بين أن نكون تحت سقف أوتحت قصف.. فالقصف على التلال ألوانا.. ولم ندركيف اندلعت النارمن تحت أقدامهم .
هاديا هنا وخليل هناك في (لارناكا) يحلم بجسديهما يستلقيان على ساحل بيروت عند الأصيل، حين يكون الرمل ناعما وأملسا مثل فروة بساط الريح البابلي...
"الموبايل" على المنضدة النحاسية .. هاديا ترابط بالمطبخ .. تنفض يديها من طنجرة (التبولة) ..فجأة تشد على رأسها وتعدو في خندق الأدراج الواطئ تحت لعلعات الرصاص .. ووائل يتبعها وجلاعلى متن طائرة من ورق الدفتر: (بابا .. بابا.. أوه مافي حدا ياماما ؟)
تمتزج في حدقتيهما خلسة دموع الغياب .. من يظللهما من " أمطارالصيف" القذرة وقنابل "العناقيد" الآثمة...
___آلو .. آلو .. بابا فين ؟
___باباهينا .. هيناهو..
___آلومين بالتيليفون ؟
___الخطوط مقطوعة ... ما في حدا بيرد (صوت العلبة الصوتية يلوك حروفه كالببغاء) : ليس لديكم رسائل أو مكالمات بدون رسائل.. المرجوالإتصال لاحقا.
___ما في حدا ياماما ؟
___أيوه ما في حدا ياعزيزي...
هاديا تقفل (الموبايل) .. وائل خلفها يبكي .. يمزق طائرته .. يأخذ قلم رصاص ويكتب على دفة المطبخ :
تجيء الطائرات..
طائرات..
تخطف العاشق من حضن الفراشة
شكرا يا عمي محمود*.
هاديا تهيئ (التبولة) وكعكة لعيد ميلاد أجهضته "أمطارالصيف" مثلما أفسدت دبكة فرحهما نيران صديقة فيما سلف...
لكن ما بال خليل مابيرد علموبايل . منذ سنين هاجرإلى (لارناكا) كرئيس لمطعم بفندق (الأوقيانوس) .. هاديا أوشكت أن تنسى صورة وجهه المكتنزوصوته العميق كبئر .. صوته الذي يجلجل من تحت شارب ستاليني كثيف و معقوف كقرني ثور(الكوريدا الأندلسي ..)
مابين القصف والغياب ..خليل من (لارناكا) يحدق في سماء لم تبرحها نارالتنين منذ ثلاثين عاما . هاديا تخمن الليلة أنه يتوسد حقيبته في باحة المطارويحلم بجناحين وبوائل أمامه في الصالون يرقص على

(الهابيبورذاي) مغمورا بالأنوارالقزحية والشرائط الملفوفة والبالونات المزركشة في الهواء والأفواه الصغيرة المعفرة برغوة القشدة وصوت فيروز يصدح على البلكونة :
سنرجع يوما إلى حينا..
ونغرق في دافئات المنى..
سنرجع مهما يمرالزمان..
وتنأى المسافات ما بيننا
هاديا لاتسمع في هذه الظهيرة غير هدير جرافات تشم جسد الجنوب بندوب غائرة وخرائب همجية .. وأزيز طائرات أشباح لاتأبه لنظرات أطفال كل جرائمهم أنهم مدججين بالبراءة...
حيطان تتصدع ..أسوارتطفح ببثور"عناقيد" آثمة.. غباريولد من غبار.. رائحة الكبريت تملؤ كل المعابروالدروب والأدراج والممرات.. كانت أسراب الصقور تمطرعناقيدها اللقيطة لتعبث بالشبابيك وتبعثرأصص الحبق واللبلاب والدوالي وباقات الورود والحدائق المعلقة والحدائق المؤجلة إلى نيسانها القادم ... والموبايل كمان لا يرن .. أين خليل ؟. وما عنوان سقفه من قبل أن ينهارالسقف عليهما من دونه .. وهل يصله وجع الأرض تحت جزمات الإجتياح الغاشم .
هاديا ووائل يقبعان تحت المنضدة النحاسية القديمة التي جلبها جد خليل من إستنبول (أيام سيق مع أقران حيه لأعمال الخدمة العسكرية بالسخرة تحت سياط العثمانيين ...) كانا يقبعان مثل جنديين في خندق على خط النارالأمامي. نظراتهما ممهورة بالدهشة والرعب والترقب .. والموبايل كمان وكمان مابيرد...
كيف انفجرا فجأة بالبكاء.. وجهان يبكيان .. أوربما تهيأ لناعلى قناة (الجزيرة) أنهما يبكيان.. يقينا أنهما لايبكيان فقد ألفا هذا الدوي منذ بدأ القصف ، بل باتا لايتصوران حياتهما قد تستمربدونه منذ ثلاثة عقود أوأكثر.. لذا فقد باتا يرغبان فيه. (هيا إذن.. مزيدا، مزيدا أيتها الصقورالمتوحشة ، أمطريهم بما شئت من أمطارك الصيفية البغيضة.)
دوي تلوانفجار.. تلوفرقعة.. تلوهدير.. تلوأزيز.. تلوصراخ.. تلوعويل ..تلوصمت .
لقد صارا يسخران من صورالموت المتربص بهما.. أجل إلى هذه الدرجة صارا يسخران من لعلعات الكلاشنيكوف وصليل الآليات وهديرالمحركات وجلبة الغزاة بين الدروب .. كان كل هذا (الشرق الجديد) يزحف بتوأدة الثعابين الرقطاء من تحت الشرفات المطلة على جنائن الزيتون والتفاح وغابات الأرز.
--هل بمقدور منضدة نحاسية قديمة أن تدرأ قذائف طائشة من صقورلاتسري دماء في أسلاكهاالنحاسية..؟
هل تستطيع الحيطان أن تدفع بصدرها الآجوري العريض لتصد وابل العناقيد العبأة بزعاف الموت ...
لقد شرع السقف من فوقهما يتكلم .. يتألم .. يتمزق.. والحيطان تتداعى .؟ لاجرم أنها ستؤول للسقوط .. كل شيئ من حولهما طفق ينهار.. المنضدة النحاسية القديمة وحدها تقاوم الزلزال وترفع الردم .. لكن السقف يقينا سينهار .
(.....)
لقد انهارالآن تماما على الجسدين والكعكة و(التبولة) والشرائط القزحية والبالونات الملونة وحبال الأنوارالطورطة المكللة بالشموع وصوت فيروزوعيون الصقورما تزال على أكمة الأرزتراقب البقاع والتلة وحقل التفاح.
هكذا انهارالسقف كما شاءت هاديا ووائل لاكما شاءت الطائرات والمدافع ...
هاديا تضم وائل إلى صدرها المضرج بدم الشهادة وكأنها تربت على جسده الغض في لحاف وسنة لذيذة وهي تغمغم : يله تنام سها .. يله تنام سها
أين خليل..؟ هاجسداهما متعانقان في أبهى توحد .. ما أفضع هذا الحقد وما أروع هذه الصورة وما أجل هذا الرحيل الملحمي إلى مواعيد حفرت تاريخهاعلى شواهد القبورالمرمرية ...
خليل في مطار(لارناكا) يلعن الموبايل :
آلو.. آلو..
.....

ما في حدا بيرد

.....

عين الكاميرات على قوافل النازحين إلى الشمال .. (عيتا الشعب) ، (مرجعيون) (عيترون) ، (مروحين) ، (شبعا)...

أطفال يعدون في المسالك الجبلية الوعرة وعلى الجسور المتداعية...

ياه..! ياه..! كيف رأيناهم في الطريق يكبرون كالرجال ويحملون أشياء الوطن بكبرياء الإنتماء ، يحلمون بدفاتر يرسمون عليها أشجار أرز تتوضؤ بنار الشرق واقفة...

هناك في تلك الليلة القائظة تعرت الأرض عن سرميثاقها الدفين...

من أين لهذه السقوف المتهاوية على الأجساد الناضرة كل هذا الدثار الحنين ..؟ ومن أين لهذه السواري والأعمدة كل هذا العناق الرؤوم..؟

قيامة مابعدها قيامة ... لهاث حاركأنه يصاعد من جوف بركان ... بكاء كالضحك وضحك كالبكاء .. أسنان تعض على تلافيف الفساتين والدراعات البدوية كي تلاحق الأقدام الهلوعة خطواتها الهاربة نحوموتها المدبرفي ردهان الصقور... يبدو من الشرفة طريق الشمال طويلا .. طويلا ونافذا في العمق القاني البعيد.. وتبدوالعوائل على الباصات والكاروات والدواب متهالكة على رزمها وحقائبها وأسرتها الباردة... صورلبقايا أحلام طمست فراديسها خرافة (نهاية التاريخ)

شيخ ينقل من راديو شاحنته أخبارا عن فيالق أرزعنيد لاتركع لطوفان "أمطارالصيف" ولا "للعناقيد" المعبأة بنزوة الإبادة...

خليل تتدافعه الأجساد في المطار... أصوات ما بالداخل تنبؤه عن هاديا ووائل . كانت يد على قلبه ويد على الحقيبة وعلى المدرج يهرع في أي اتجاه .. وكان يرنو إلى (بوينغ) الشرق الأوسط الرابضة هناك على المدرج ببلاهة .. يقينا أن السقف قد انهار عليهما مثلما انهار على الآخرين في القرى القصية ...(همس لنفسه.) ليل (لارناكا) يمتد ساخنا وعبقا برائحة الحرائق القادمة من شرق المتوسط .. و(الموبايل) لا يرن ورسائل الجنوب لم تأت بعد وفي المدى تتسع شهية الحرب والخرائب والنيران والدمار...لكن ماذنب البراءة ؟؟.

شتنبر2006

عبده حقــي

We are the World

هي تلعق شفتيها الملطختين بمعجون "الايس كريم " تختال أمامه في غنجها الاندلسي .. فاتنة كانت وهي تغمغم بأغنية خمن أنها أغنية we are the world
هو شارد في تفاهة وروعة اللحظة..
هي تبدو في المنحدر الرملي الساخن طفلة نزقة بعد أن كانت هنالك على قمة تل سبتة سيدة حازمة القوام وحديدية الكلام...
خمن أنها أوقعته في شرك لعبة يعز عليه التوقع بنهايتها...
حين بلغا السفح ، كان نادي البحر الابيض يطفو مثل إسفنجة على سطيحة سد تلي تتراقص في قعره أضواء بالوان مختلفة فتبدو المويجات أشرطة راكضة كأنها قوس قزح يتحلل بهاؤه على فاصل مرأب السيارات.
صفوف أشجار الارز .. أغصان مطوقة بعقد زجاجات النور .. حفيف أشجار أخرى متوحشة ، دخيلة من مشاتل استوائية ..
بعض السياح ، مثنى وجماعات بالبهو ، يرشفون فناجين أحادية الأرجل .. اللغو الانجليزي يقفز على اللغو الفرنسي واللغو الايبيري يتزاحم بين هذا وذاك في جسارة متحضرة ، وكريستينا ما تزال تغمغم أنشودتها we are the world
على جانبي البوابة العريضة مخدعان لحارسين من الريف .. بزي واحد .. طربوش أندلسي أحمر ، ملفوف في عمامة أطلسية ، و تحت السلهام الكتنساني عباءة بيضاء وسروال قندريسة مزدان بالطرز الفاسي .. كانت ايماءة كريستينا كافية كي يغمد لسانيهما بيد أن احتماءه بها لم يمنع أحد الحراس من أن يحدجه بنظرة شزر و يهمس لزميله (لكل ليلة فارسها العربي)
لقد اجتاز البوابة بسلام ،على الواجهة تصميم تكعيبي لهندسة نادي البحر الابيض .. تقدمت كريستينا خطوتين .. تبعها بخطوتين أيضا .. توقفت فتوقف .. استدارت وقالت (سأشرح لك قبل أن نلج معا). ودست في جيب سالوبيتها الازرق رواية (الشمس على الارض) لكلودا روا.
قال : يذكرني هذا المدخل ب.. فقاطعته وهي تلملم ضفيرتها القمحية الى الخلف وتفتح أزرار قميصها المشجر (تصميم النادي مستوحى أصلا من قرية تروبيكالية وها أنت كما تلاحظ أن الخبير السياحي قد راعى الخصوصيات المناخية والبيئية لهذه المدينة الرائعة ، فالمعمار البراني كما يبدو شبيه بقصبة من قصباتكم وراء تلك الحدود ، الا أن الغرف والصالونات و حلبات الرقص والاثاث كما سترى مستورد بالكامل، فأجابها (أعرف ذلك حتى في البنايات الاخرى ، انظري مثلا الى تلك الشاليهات المبثوثة على شريط مارتيل الاتوحي لك بمنتجعات هاواي او الكرايبي ؟ فردت وهي تحضن خصره : (بالظبط ما الفرق بين هنا وهنالك فما أجمل أن يتوحد العالم) وانشأت تغمغم ثانية أغنيتها we are the world وسبابتها تنزلق زاحفة بين زوايا ومنعرجات التصميم التكعيبي . توقفا أمام مسبح دائري هناك كراسي ، طاولات ، اقتعدا تحت مظلة مفوفة بخطوط بيضاء وسوداء ، على اليسار كولواريفضي إلى غرف محجوزة على مدار السنة، شرفات جميلة تطل على شساعة المتوسط و على اليمين معبر ينفتح على قاعة لعرض أحدث الموضات خلفها قاعة للمؤتمرات مجهزة بآليات لإطفاء الحرائق والإسعافات الأولية .. تذكر وهو يحاذي الفاصل الزجاجي السميك لعبة الممرات الزجاجية المفخخة في حديقة الجامعة العربية .. اجتاز الكولوار في صمت .. توقفت ، فتوقف .. ثم واصلت ، فساروراءها .. مثل ظلها كان .. قاعة الازياء مشعة بافراط .. فساتين الدانتيل المتلألئة .. روبات الساتان .. بذلات السموكين .. من سقف القاعة الليلي تتقاطر نغمات البيانو كقطرات رشاش بارد ومنعش .. في الزاوية القصية (مانكان) رجل منتصب في أمره الأبدي ، تبدو قسماته مثلما يوشك على البكاء ..توقف هو

إلى جانبه .. ثم توارى خلفه ..عيناه متحجرتان .. نبرات البيانو ما تزال تتقاطر من السقف الليلي و حبات عرقه في الداخل تنزلق بين أتلام الصدرعازفة دبكة الغرباء .. أيقنت كريستينا أنه انفقد على تماس الإنخطاف الآني فقالت : (سمفونية ريتشارد ستراوس دون جوان .. الاوركسترا السمفونية لغرناطة بقيادة جورجي سولتا هل فهمت؟ تعال اذن نواصل ايغالنا في هذا الاسترجاع الرومانتيكي.) فسارا على موكيط كستنائي .. طوقت جيده بذراعها النحيفة البرونزية التي خبرت كيمياء التشمس الجنوبي .. زغبها التبري اللامع كالألياف النحاسية ، يغري بالزهد على عتبة فتنتها الهجينة ذات الجذور الجيطانية .. مسحت قامته بنظرة مارقة و قالت (اعتقد أنه بيننا ميثاق ما ..لست ادري ما هو ومن أين أتى و كيف شكله ماضيك في حاضري فماذا لوأهديتك ذلك الكوستيم الرمادي الذي رأيناه على أيقونة المانكان ؟). و ما إن هم بالرد حتى أطبقت على شفتيه طويلا .. في ناصية الممر فتحت كريستينا الباب الخشبي المتين ، فتدفقت فجأة ودفعة واحدة لعلعة موسيقى الروك بصخبها و عنفها و تمزقات قيثارتها تدفق السيل الجارف ، وسرعان ما راعه ما رآه .. أجساد تهتزوتنزل وأخرى تتلوى .. أجساد كلها تسرد سيرتها الذاتية بالرقص على ذبذبات صعقات موسيقى "الرولينغ ستون" تحت سياط أضواء تشتعل وأخرى تنطفئ .. دخان متماوج .. حرائق لا ناربها .. رائحة غريبة هي مزيج من العرق الراقي والعطرالشمالي والسيجارالكوبي الغليظ والدلع النادر .. شرعا في رقصتهما الأولى .. كريستينا تدفعه تارة وتسحبه أخرى كالخذروف هولا يتقن غيررقصة (الحضرة) وشتان بين (الحضرة) ورقصة الروك .. هي مبارزة اذن بين رقصتين .. كائن ما ينغل تحت جلدته و يشحذ مفاصيله .. ها هو كيجذب (الله دايم .. الله دايم .. الله دايم) الحضرة هنا والروك هناك .. عينا كريستينا تدمعان من فرط القهقهات حتى لتكاد تقع على قفاها .. بعض الرواد كفوا عن الرقص وتحلقوا حولهما .. كريستينا تحاول أن تضبط إيقاع قدميه على الروك فترتدان تلقائيا إلى رقصة (الحضرة) .. هيا يامحمد أرقص رقصتك الجنوبية ..مزق سترتك .. وإن استطعت تشظى. أطلق سراح شياطينك من مرابضها العيساوية.

هاهو قد فقد توازنه و أوشك على بلوغ "الحلول "وحين يفقد إنسان مثله توازنه في اصطخاب (الحضرة) فكل شيء محتمل الوقوع .. ناولته كريستينا بيرة فراح يعبها مغمض الجفنين .. مترنحا غيرعابئ بتحذيرها .. يندلق السائل الزعفراني على صدره .. ها قد أيقنت أنها فقدت السيطرة عليه حين طفق يغمغم (أين نحن من .. أين انا ؟ في الضفة الغربية أم في البحرالميت أنا في كاليدونيا: أنا في كوادلوب.. أنا في لاس بالماس) احتارت كريستينا كيف تسترده إلى عرينها قبل أن تحدث الكارثة .. قيامة الجذبة .. انتشلته .. نزلت به بعض أدراج إلى المرقص السفلي .. هنا علبة ليلية تتدلى من سقفها خيوط كثيفة من نبات السافانا والسرسخ .. طبول السامبا والتانغو وعويل ماكيمبا يتمزق في أجواء الأدغال المتوحشة والبئيسة .. قبيلة الأقبية السفلى.. دمدمات كأنها أنات معطوبي حرب أهلية بينما في المرقص الفوقي كان المنشط الفرنسي قد استبدل الروك بهدنة موسيقى الصلو.

حين فتح عينيه الفي نفسه مستلقيا وعاريا على السرير .. صوت الرشاش ينطلق خفيضا في الدوش .. دوار يستبد به مثل دوار صبيحة أعقبت ليلة على ظهر سفينة .. بعد لحظة دلفت كريستينا ملفوفة في نشافة بيضاء مرقطة بدوائرحمراء .. شعرها مبلل .. و بشرتها تشبه جلد دجاجة منفوشة .. دعك عينيه وقال لها (متى سنرحل ..عفوا أقصد متى سنتم رقصتنا) فأجابته (لقد شربت كثيرا حتى أوشكت أن تفعلها في الفوق.) فأجابها (كلا .. كلا لقد كنت تحاولين معي درسك المألوف ، إلا أنه أنزلتني الغريزة إلى مواقعي الجنوبية .. أنت طبعا تمقتين رحلاتي في الآفاق التحتية.. وأنا كما تعلمين و كما رأيت بالأمس لا اتقن الرقص في غرفتك العليا.) كان جسده منغمسا في تنمل وخذرعجيبين .. قام بصدره العاري .. اتكأعلى مسند السرير .. أشعل سيجارته الأولى .. مجها بنرفزة وقفزإلى المرآة تحسس وجهه .. قسمات ممسوخة .. على الصدغ نذب لم يدرمم وقع ، ربما أثناء هيستيريا (الحضرة).. مسح المرآة فألفى و جهه الأول .. نفس الوجه و مع ذلك شك في حقيقة ما يحمله من قسمات حين احتضنته كريستينا من خلف ظهره وهي تغمغمWEARE THE WORLD

الكاتب

في تلك اللحظة المتؤخرة .. في ليلة من ليالي السبعينات .. انتهى من كتابة النص ... أرسل زفرة قوية اهتزت لها الأوراق أمامه على المنضدة ثم استرخى على مسند الكرسي... أشعل سيجارته العشرين الأخيرة وطفق يتأمل تلك الكلمات .. جرات التشطيب ..الهوامش ..الدوائر..البياضات الكثيرة...
شعربنشوة جارفة حين لمح على المنضدة أصيص الزهور وقد اشرأبت بينها زهرة بلون متفرد رغم أنها جميعا من نفس الأصيص ونفس التربة.
إنه الآن يمعن النظرفي مفاتنها الداخلية الآسرة مثلما تكشف له امرأة عن أزرار منامتها الوردية الناعمة في ليلة شتوية...
ضغط على عقب السيجارة العشرين والأخيرة في المرمدة التي كانت تطفح بأعقاب أخرى وكانت تنبعث منها رائحة كريهة .. إن خليلته تمقت تلك الرائحة التي تظل عالقة بمنامته وتفوح من فمه بقوة حين يستلقي بجانبها على السرير ... وكثيرا ما حاول الإمساك عن التدخين ، إلا أن النص الماكر يستدرجه لذلك في دهاء ومن حيث لايدري ...
سيظل إذن يدخن ويدخن ويدخن مادام لهذه البلية علاقتها الغامضة والمتواطئة مع التفكيروالكتابة...
انزلق بتوأدة ..السريردافئ.. شعرمرة أخرى بنشوة النص وتفتح الزهرة وعطرالخليلة .. ضغط على زرالنور الذي يشبه إجاصة متدلية فوق رأسيهما ..أغمض عينيه وحاول أن ينام لكن صور ولحظات النص تعبر أمامه مثل .. مثل .. مثل .. قطعان من السحب الحثيثة .. أوربما مثل شيئ لم يستطع تحديده في الظلام ..آه ربما أخيرا مثل دوائرمائية تكبرشيئا فشيئا لتتلاشى إلى حيث لايدري...
وكثيرا ما كان هذا القاص يحلم بالنص/الحدث .... نص يتصدرالعناوين الرئيسية في نشرات الأخباروالمجلات والجرائد.. نص يزعزع النظريات النقدية والمفاهيم والمصطلحات... لذلك فهو كان يبيت الليالي مسهدا داخل (مختبرالسرديات) الذي هوعبارة عن غرفة ضيقة منزوية بجوارالمطبخ ، تتكدس فيها أكوام من الكتب والمجلات والقصاصات والمسودات المدعوكة هنا وهناك قرب البالوعة ... وكالعادة كل صباح كان يستفيق يشرب قهوته على الريق وأحيانا مع كسرة خبزوزيتون ويشبع ... هكذا كان يقول لخليلته أنه شبع ، المهم هو أن يشبع بالكتابة ... ثم يدخن سيجارته الأولى ، بعد ذلك يصعد إلى السطح ، يعيد قراءة النص تحت أشعة الشمس الخريفية .. يتأمل السماء وسحبها التي ماتزال تراوح مكانها ... وكثيرا ما كان ينزل خائبا ليمزق أويحرق ذلك النص ويلقي به تحت الصنبورحتى يتحلل حبره ثم يدخل إلى الدش البارد في صمت مريب .. يفكر في نص آخر ويهمس في نفسه : (ما جدوى كتابة نص جميل إذا عجزعن السيرفي الشارع وحده ليعانق الأصدقاء واحدا واحدا .. يركب الأوطوبيس ويتجول في الحديقة العمومية ويجلس في مقهى ويستحم في المسبح العام بدون تبان ... وعلاش لا...
في هذا الصباح ، استفاق على الساعة العاشرة وهو قد اعتاد أن يستفيق في مثل هذا الوقت أويستغرق في نومه إلى ما بعد الظهيرة ، لافرق عنده في ذلك بين فصل وفصل فجميع فصول الله تتشابه مادام في رأيه أن النص المشتهى لم ينزل من سمائه بعد ، لامن سماء التجريب السابعة ولامن سماء السريالية السادسة ولا من سماء الفانتاستيك الخامسة ولا من سماء الواقعية الرابعة ولا من هذه ولامن تلك ... وهوحتما لن ينزل مادام أن للغة قرارها الأخير وقاموسها المتمنع الذي نصبت عليه المناهج النقدية برجا للمراقبة...
هكذا تعود أن يحسم الأمرلكنها لعنة الكتابة...
واليوم ليس ككل الأيام.. يوم من أعوام التسعينات ... دس النص في جيب معطفه الرمادي .. رنا إلى المرآة .. كان يبدو مثل دب هرم عليل .. نص آخر يجرب حظه في هذا اليوم الرصاصي البارد والذي يندر برياح عاصفة ... كان الكاتب يمشي مزهوا بنصه النائم في عمق جيبه الدافئ بين المنديل الأحمروعلبتي الثقاب والسجائر. في منعطف الشارع العريض اصطدم فجأة بجسد بدين يحمل كومبيوتروجريدة بالألوان... لقد ألف أن يرى هذا الوجه على أعمدة الصحف وشاشات التلفاز... إنه الشاعروالروائي والقاص والمسرحي والفنان التشكيلي ورئيس جمعية رياضية وعضو اتحاد كتاب جزرالقمر.. و.. و... وهو يفكرفي انشاء مقاولة PME للقصة القصيرة ومقاولة PMI للرواية

والإستثمارفي الفنون التشكيلية ... كل هذا طبعا في إطار لبيرالية الفعل الثقافي (وعلاش لا !!) فنحن نعيش في نظام عالمي جديد وطوفان العولمة الجارف قادم لاريب فيها...
إعتذر الكاتب لصاحبه بعد أن التقط نظارته التي وقعت على الأرض بفعل الإصطدام ومسحها بكم معطفه السبعيني الذي يشبه معطف (كوكول) ، معتذرا ثانية وثالثة ومتأسفا كثيرا .. كثيرا .. عما حصل بالصدفة وأردف أن منعطفات المدينة كلها مفخخة ولحسن حظه أنه غالبا ما يصطدم بكتاب مثله ، ولذلك فهو قد حمد الله على أن كاتب اليوم هو السي (الخمارالقاشوري) سيد السرديات وقاهرالقواميس ... فما أجمل إذن هذا الإصطدام وما ألطفه .. إصطدام نص بنص...
ولكي يكفر الكاتب عما حدث دعا السي (الخمار القاشوري) إلى احتساء فنجان قهوة على حسابه . غير أن هذا الأخيراعتذربلطف بدعوى أن مقهى (النهضة) أصبحت في السنين الأخيرة تعج بكتاب مغمورين ، جسورين يضايقونه بضوضاء أسئلتهم السطحية حول روايته الأخير(الكنز)
في حانة ما جلسا وجها لوجه .. وما كادا يستويان في جلستيهما حتى وضع النادل الأكرش على الطاولة قنينتي بيرة وحيى (الخمار القاشوري) بحرارة فائقة .. اعتذرالكاتب عن شرب البيرة وفضل كأس قهوة معصرة فيما احتفظ (الخمارالقاشوري) بالقنينتين معا...
ظلا صامتين .. نظرات ملغزة .. متقاطعة في أحيان كثيرة...
أخرج (الخمارالقاشوري) غليونه العاجي وحشاه بحفنة من التبغ الهولندي الرفيع فيما سحب الكاتب النص من جيبه وقدمه قائلا : (أرجو منك أن تقرأه وتعطيني رأيك).
شرع (الخمارالقاشوري) يمج غليونه .. يعب البيرة ويتأمل النص .. يقطب حاجبيه تارة ويفرجهما أخرى .. يهمس بكلمات مبهمة .. يتزحزح في مكانه إلى وضع أكثرراحة على ما يبدو، يعب البيرة بنشوة بالغة ... خمن الكاتب وقال في نفسه : يبدو أن النص المنتظر قد نزل أخيرا من سماء ما ، فهو يرى علامات نزوله على وجه المثقف (الخمارالقاشوري) . بعد لحظة إنتهى من قراءة النص وصفق فانتصب الكاتب كالمذعوروواقفا احتراما له وقال بصوت مجهد:
ــ عفوا ..عفوا فأنا مدين لاعترافك هذا وتصفيقاتك المنوهة ...
فرد (الخمارالقاشوري) بوجهه الغارق في دخان الغليون :
ــ لم أنته بعد من قراءة نصك فأنا قد صفقت للنادل فحسب .
لم يرد الكاتب ، مكث منكمشا في معطفه السبعيني ينتظررأي (الخمار القاشوري) وبقي النص محاصرا بينهما وبين التصفيق والتصفيق والنادل يأتي بالعامرويمضي بالخاوي ، وفي لحظة ما دلف الكاتب المسكين إلى المرحاض وحين عاد وجد النادل الأكرش في انتظاره :
ــ ادفع .
عبده حقي
1995

الفنان.. كوميديا قصصية

من عين علبة ص.ب ألفاها رسالة وردية نائمة في وداعة... بحلق في ظلام العلبة.. أخيرا استطاع أن يفك حروفها اللاتينيةDe la part de Mme Jacqueline

Directrice de la Galerie Post-modernité

Avenue Arc-en-ciel

Rabat

خفق قلبه ودارت به الأرض ب 180 درجة.. أخيرا بعد طول هذا العمر ها هو يحظى من أحد أشهر الغاليريهات بدعوة لعرض أجمل لوحاته.. أخيرا تحقق الحلم... هذا كل ما كان يأمله وما كان ينقص سيرته الفنية إن على فقرها أو غناها لا يهم، المهم هي ذي إذن فرصة العمر كي يرتقي درجات الشهرة أو على الأصح كي يسخر من كل من إستخف بعبقريته التشكيلية فيما قبل.

كيف له أن ينسى نظرات الازدراء من زوجته حين كانت تداهمه في ورشة المرسم لتلقي بقائمة أغراضها على وجهه أوعلى الأصح على وجه لوحته متعمدة في حقيقة الأمرأن تفسد عليه خلوة إلهامه ونشوة إنغماره اللذيذ في لحظة تيه الإبداع وجذبة الفرشاة... أما الأصدقاء!! أي أصدقاء؟؟ دائما يهمس للوحاته فلا فرق بين بطونهم وجماجمهم ... كل شيء في حواسهم وجوارحهم إما ترينه يمضغ أويجرد في الخيال العابرات من سراويل الجينز اللصيقة بخاصراتهن .. هذا قصارى ما ينجزون لأنفسهم وللآخرين.. وكثيرا ما فكر في فتح باب مرسمه لهم، غيرأنه كان يحدس أن مرورهم من هناك سيكون كاجتياح التتار والماغول أو مثل الحريق الذي سيأتي على معلمة ثقافية وطنية لذلك فقد أوصد في وجوههم كل دعوة للزيارة ثم فوق كل هذا وذاك أن ما أجج حقده على الأصدقاء أنه لم يستخلص بعد ولو درهما واحدا عن لوحة إقتناها أحد المزقرمين من دون أن يفطن فناننا إلى اليوم لا بالغمزولا باللمز، أن صديقه المزقرم لم يقتن اللوحة إلا إشفاقا عليه ومؤازرة معنوية له ليس إلا....

واليوم ها فنان آخريولد من رحم رسالة وردية نائمة في غرفة ص. ب.. وها شمس الإعتراف أخيرا تلقي بأضوائها الكاشفة عليه... لا شك أن وسائل الإعلام، مرئية ومسموعة ومقروءة، سوف تتدافع لهذا السبق الصحفي كما الفنانين التشكيليين العظام القاسمي والصالدي والغرباوي والشعيبية ... وسيوقع المئات من الزوار في دفتره الذهبي وسيملأ جيب معطفه بكثيرمن الشيكات عن لوحات معروضة وشيكات أخرى مؤداة مسبقا عن لوحات لا زالت أفكارا هائمة في مخياله... وفي مساء الإفتتاح كما جرت التقاليد الثقافية في ربوع الوطن سيتناول عشاءا فاخرا وراقيا لاتحد مائدته العين في فندق (شيراتون) على حساب نائب برلماني أوعمدة المدينة...

ـ الفنان!! الفنان!! ألفنان !!

هكذا يناديه أصدقاؤه ومعارفه وحتى أولئك البدويين النازحين الذين استوطنوا الحارة في آخرليلة..

أما النداء فلم يكن في حقيقة الأمرسوى شماتة في غالب الأحوال لذا فقد كان يتغافل النداءات ـ هؤلاء البلهاء ليقولوا ما يشاؤون ـ يقول في نفسه : أجل أنا فنان بألف ممدودة إلى عنان السماء (فناااااااااان)

موتوا بغيظكم ولدي ورشة لم يحلم بها أشهركم فنا في البلد ولي بها الكثير من اللوحات الجاهزة واللوحات الوشيكة والعشرات من اللوحات الملغاة.. أما هؤلاء الأصدقاء الأوغاد فهم لا يدركون ما معنى أن يعيش بينهم فنان تشكيلي! ..

يسحق عقب سيجارة الفافوريت . يسوي قبعته البودليرية ويطلق على الصدرشاله الوردي الطويل المطرز ويمضي في متاهات الحارة خافضا بصره ومتلافيا المرور من أمام الدكاكين والحوانيت ونظرات الباعة وألسنتهم المسننة التي مرغت غيرما مرة كبرياءه العبقري في وحل القروض والسلفات الطفيفة...

الفنان!! الفنان!! ها..ها..ها...

دس الرسالة في جيب بلوزته البيضاء المرقطة بلمسات الأصباغ التي يسميها حوادث الشغل.. نزل إلى الورشة، أشعل سيجارة.. دار دورة ببصره حولها.. يمج وينفث الدخان في إنتشاء وزهو فائق.. كان أمام كل لوحة يتقدم ثم يتراجع.. يقطب حاجبيه.. يزم حدقتيه ويلوي عنقه.. عشرات اللوحات هنا وهناك.. صامتة تنتظرحظها مثل عارضات الأزياء.. لوحات بلا أسماء وبلا عناوين... إن أشد ما يكره هو أن يعنون لوحاته بدعوى أن عنونة اللوحة هو إغلاق لانفتاحها على جمالية اللامعنى كما أن الإسم يطوق عالمها الفاتن والمطلق وأخيرا فهو يعتبرالإسم إجابة فاشلة بشكل ضمني على الأسئلة العالقة التي قد تدور في أذهان الزوار.. لذا.. لذا فهو يترك لوحاته لفرضيات الإسقاطات النفسية... وفي لحظة ما شرع ينتقي لوحاته الثلاثين التي سيعرضها أوبالأحرى ستودعه قريبا وإلى الأبد وسيقتنيها مدراء الأبناك والمؤسسات الخاصة وشركات التأمين ومكاتب المحاماة والمصحات النفسية والفنادق الباذخة و.. و... ولقد قررأن يكتم سرالرسالة العجيبة عن زوجته وأولاده، فلوعلموا بها فلا شك أن شهيتهم ستنتفخ وأن لائحة المطالب ستطول ولا محالة أن زوجته سوف ترتبط به أيما ارتباط وسوف تلازمه في سفرته الفنية إلى العاصمة ليس من أجل مؤانسته بالهمسة الرخيمة والابتسامة الدافئة وإنما من أجل استخلاص الشيكات وحساب المداخيل وهو يعلم علم اليقين بطيشها وخفة يدها وعماها حين تسمع برنين الدراهم في جيبه فهي لن تتوان ولو لحظة قصيرة عن إخراج الآلة الحاسبة وأمام الجمهور كان من كان... لذا.. لذا واتقاءا واستباقا لكل هذه الكوارث المهينة فقد قررأن يدعي أن الأمريتعلق بمعرض جماعي تنظمه إحدى سفارات الدول العربية الخليجية بالعاصمة...

لف لوحاته في لفائف من الجرائد القديمة.. كان في كل مرة يدخل محملا بحزمات منها.. أدركت زوجته أن أمرا ما قد طرأ.. نزلت الورشة خلسة فألفته منهمكا في تلفيف آخراللوحات... أيقنت بما لا يدع مجالا للشك أن أوان رحيلها قد حل بعد كل هذا العمرالطويل من الغطس في الأصباغ وألوان البؤس والتحليق عاليا في قوس قزح للبحث عن الشهرة الواهية... الحمد لله.. الحمد لله.. قالت في سرها وعلت محياها إشراقة هناءة وانفراج .. لقد آن لهذه اللوحات أن ترحل.. لكن إلى أين؟ ومقابل كم؟ وترى من سيكون هذا المنقذ من الأصباغ الذي سيفرج كربتها من غم تلك الشخابيط واللخابيط التي تملؤ القبو بلا طائل... وقبل أن تقصفه بأسئلتها الرصاصية كالعادة استبقها إلى الحديث وأخبرها أنه سيشارك في معرض جماعي بإحدى السفارات العربية بالعاصمة : (لا مفر من الكذب... الكذب شرط من شروط الشهرة... الكذب أقصر طريق إلى المجد!!) هذا ما علمه الفنانون وهكذا وصل الكثيرمنهم إلى القمة فلماذا لا يجرب أن يكذب ولومرة واحدة في العمرعلى زوجته الغلبانة .

قبل تاريخ افتتاح المعرض بأيام كان جاهزا.. اللوحات ملفوفة بعناية وكل لوازمه على أهبة.. كان في قرارته يستعجل الموعد وكان كل يوم يمريستشعره كما لو أنه يبعده عن اليوم الموعود.. وبدأ يشعر بالزمن يتثاقل حتى خمن أن الزمن صديق وقح مثله مثل الأصدقاء الآخرين.. وفي صباح الموعود قررأن يسافرإذ عليه أن يحل باكرا بقاعة العرض فمديرة الغاليريا تعلم بقلة تجربته في تنظيم المعارض... لذا فقد جاءته دعوة جاكلين رسالة وردية مفصلة بإجراءات مرتبة باليوم والساعة لوضع الترتيبات الفنية المتعلقة بمساقط الإنارة وتناسقها مع الأضواء الطبيعية الخارجية وعلاقة كل هذا بإطارات العرض وزوايا الرؤية ومواقع المشابك... الخ

كانت الناقلة رابضة على الرصيف، وكان الحمال يلقي بالأمتعة على السطح. حين وصل الفنان ولوحاته الثلاثين على متن (هوندا) كان من حسن حظه أن رتب الحمال اللوحات فوق الأمتعة الأولى على سطح الناقلة.. وحمد الله على حظه هذا وحظ لوحاته.

صباح ربيعي جميل.. ربما أجمل صباح في العمر.. بعض سحابات سكرية كأنها لمسات بيضاء سوريالية على قماش أزرق.. منظر أنعش وأيقظ كل الحواس الفنية، وهناك في المدى الرمادي البعيد باتجاه العاصمة لحاف غيوم داكنة تتذبزخات خفيفة.. عالم رائع، ملتئم في انصهار تلقائي ليشكل مع نشوته الجوانية لوحة طبيعية رائعة... شعر أن لا أحد من الركاب عبئ بهذا المشهد الطبيعي الفاتن.. وحده إذن.. وحده وقدره أن يعيش نعمة الفن كل لحظة وحين في كل المرئيات وفي كل مكان حتى داخل هذه الناقلة المهترئة المتصدعة التي أنهكتها الحمولات الزائدة .

كانت العجلات من تحته كتيوس أربعة تلتهم المسافات والمنعرجات، وكلما أوغلت الناقلة في الطريق كلما شعربالأفق يفتح ذراعيه له وللواحاته الثلاثين على السطح. بعد لحظة توارت الشمس خلف سحابات داكنة، ثم لاحظ على النوافذ قطرات رذاذ قليلة.. داعبته وسنة لذيذة.. لقد ألف أن يغفوبعد الظهيرة.. تمايل وتهويدة الناقلة يؤججان أيضا حلاوة غفوته المعسولة.. لقد استطاب هذا الاسترخاء، فلا بأس إذن أن يحلم قليلا وهو لا محالة على وشك تحقيق حلمه الأكبر لكنه حلم واقعي هذه المرة وفي العاصمة الرباط...

لقد غفا واستغرق في نومه إلى حد الغطيط وضاع شخيره في هرهرة ولعلعة وصفطقات أضلع الناقلة ولم يستفق إلا على خبطة كف العون على بابها الخلفي (باط .. باط .. باط .. أعلى سلامتكم)

استفاق فجأة.. إنها العاصمة تغرق في أمطارعاصفية.. ألفى مياه الأمطارمثل خراطيم صغيرة تتدفق على جنبات الناقلة تلتها طقطقات حبات برد كثيف أتلفت صوت الراديو ولغط الركاب ونظراتهم التائهة... كان لا يسمع من حوله سوى (الحمد لله.. مبروك الروا.. الحمد لله مبروك الروا) وانفرجت أسارير الركاب البدو الوافدين على العاصمة لحل مشاكلهم التي إستعصى حلها في الأقاليم.. فقد كان الموسم الفلاحي على شفا كارثة جفاف آخر وعطش يزداد على عطش سابق.. أما هو فقد كان ينتشي برؤية التشكلات المطرية التجريدية تتدفق وتنزلق على زجاج النوافذ.. هو فنان وكفى.. فنان فوق كل الأحوال الجوية والأزمات الاقتصادية ووعكات البورصات.. ما شأنه بكل هذه التقلبات فأرضه لوحاته ومحراثه ريشته وبعد قليل سيجني مازرعت يداه منذ عقود...

توقفت الناقلة وتحولت الأمطار والبرد إلى زخات خفيفة منعشة ورائقة.. طفق الركاب يهرعون إلى سقوف المقاهي والمطاعم الصغيرة.. شرع الحمال ينزل اللوحات الواحدة تلو الأخرى . فجأة أووووه !!! يا للمصيبة ويا للهول !!! كانت كل اللوحات مبللة كأنها انتشلت للتومن قعر صهريج، ومن خلل

تخاريمها بدت الألوان شخابيط ولخابيط.. كل الألوان تميعت واندلقت وطمست ملامحها الغضب السماوي .. كل اللوحات بارت.. الخطوط والدوائر مثل أفواه كاريكاتورية واسعة منصرفة في كركرات لا تنقطع ... تذكرنداءات الحاقدين (ألفنان .. !!ألفنان .. !!) هو الزلزال نفسه يرجه في الداخل.. ماذا يستطيع الآن؟ لقد انهارعليه الهرم . الصرح الذي بناه في القبو.. حتى الطبيعة على نقائها وطهرها المعهود خذلته في آخرلحظة.. ماذا يستطيع الآن؟؟ صوت امرأة يأتيه من بعيد (فين اللحم والخبزوالبوطا غاز ... يألفنان ؟) صدى أصوات تطوقه من كل جانب (ألفنان.. !!الفنان .. !!) والأمطارأيضا تهتف به (الفنان !! الفنان .. !!) حتى هديرالسيارات تحول إلى نداءات ...

فجأة شعربلكزتين قويتين في جنبه وبيد سيدة تطبطب على صدره وتقول: (إصح .. إصح من نومك قبل أن تزهق روحك الكوابيس.

دعك عينيه بقوة كانت الساعة قرب الوسادة تتكتك الساعة السابعة صباحا، جلس على حافة السريرأرسل زفرة قوية وقال : (الحمد لله.. الحمد لله اللوحات لم تبللها الأمطار!!!) ما أفظعه من كابوس

زهرة النيلوفر

...لذا كنا نخشاه ... من بعيد أو من قريب .. ونحن نسير على الحد الفاصل بين شلال الشمس وظلال السور الذي ينتصب على رميم الغرقى.
كنا نرى العظام الثلجية ولا نجرؤ على النبش خوفا من أن نوقظ أرواحها القديمة فنصاب بمس عظيم.
لست أدري من أوحى إلينا بمزاره فقصدناه كالمريدين ، إذ كان رحيلنا المسائي أشبه برقصة الفراش الهائم... رقصة لاأول ولاآخر لها.
هناك .. تحت البوابة الأرجوانية العتيقة توقفنا . أحسسنا بحرارة الجسد تنخفض بالقدر الذي يجعل هبة نسيم عابرة باردة علينا كدش المصيف.
قلت لأبي : أجل لقد رأيت الذراع هنالك .. وحدها في غمار الماء .. هنالك تخبط على السطيحة ثم لم تظهر ثانية.
رنونا إلى المسارح المائية الشفيفة .. ثم قال : قد تكون ذراع سيدة عاشقة، لاشك أنها ذراع سيدة متلبسة في فستان سهرات الآدميين .
كانت على الذراع علامة زهرة النيلوفر.
بدا النهرمنصرفا في أزله إلى خوانق التلال القصية.
طفقنا نترقب أن تخبط ذراعها ثانية ، بيد أنها لم تطف .. مثلما المجذاف يندفن أو يختفي .. اختفت زهرة النيلوفر.
أشرت إلى الأعماق وأعدت عليه دون أن أشعر : أبي لقد خبطت هنالك ، صدقني. . ذراع مشمرة على ساعد ناصع كالقشدة.. بفستان السهرات المشغول بضفيرة البرشمان...
توقفنا .. اتكأنا على جذع السورالرخو ... مشدوها كنت .. تساءلت إن كان بالنهرعلى صغره ، أرواحا ، حوريات أوحيتانا تخبط بين الحين والآخر على هدوء الصفيحة المائية وتطفو بعيونها القرمزية الصغيرة لتترصد الأقدام المختالة على الحافة ونحن نشاطئ النهرعلى الحد الفاصل بين شلال الشمس وظلال السورالذي ينتصب على رميم الغرقى...
ران علينا وعلى المسارح الزرقاء صمت رهيب ، أشبه بصمت القبور.. والنهرمسافر زاده قرابين زهرات النيلوفر.. يمضي تحت أنظارنا في دفاقه الغريب ، إلى بطون التلال المندالة...
مكثنا لهنيهة نتسمع لهسيسه الأسطوري الغامض ونترقب خبطة الذراع ثانية...
قلت في نفسي ، يقينا أنها الآن في كنف الأعماق ، على مهاد القعر.. ببطنها المتورم بالماء وفستان السهرة الذي تراقص تلابيبه المويجات السفلى وضفيرتها عمودية كحزمة سنابل وعيناها لم تعلوهما بعد سحبة القرارة.
كان النهر يمضي غيرعابئ بنا أو بالدراع التي ننتظر أن تخبط ثانية على السطيحة .. خبطة جناح مكسور.
هنا في النهر ترقد سيدات كثيرات ... من لم يخضب راحتهن عسل الحناء العذراء .. من خذلتهن مقصورة الهودج فألقين بأجسادهن في نيران المياه السفلى ، خوفا من أن تنفش أسماؤهن على بوابة الحارة ... قد تكون تلك الذراع المتلحفة في فستان السهرة آخرتهن ، فلنستمر في الإنتظارأو قد يأتي صيادوالليل بعصا النبوة لتشق صدرالقرارة فنرى زهرة النيلوفرممددة على مهاد القعر.
وانتظرنا مساءا .. كانت الغلالة البنفسجية تنثال على المسارح بإستارتها الشفيفة والنهريمضي كما ألفناه غيرعابئ بالوقت وبانتظاراتنا .. نهرا صامتا كان .. منطويا على سره الدفين...
لمحنا عصافيره تؤوب إلى وكوناتها في مسامات السورالعريض كما آخر نسائم الأصيل التي تزف بين قامات السنديانات إلى ملاذها.
كنا آخرمن مرعلى حافة النهر .. حين لم تخبط الذراع ثانية عدنا نحن أيضا مثل العصافير .. مثل النسائم .. مثل النمل .. مثل طيور اللقلاق التي تعتمرقنان أشجارالصفصاف على الحافة ..

حدثني عن هياكل أخرى طفت في ذات النهرفي الأيام الخوالي .. وعن رجال زلت أقدامهم الجذلانة بعد أن استراقوا دنان (كروان) وهشموا قلالهم الأرجوانية على عتبات الفجر.
ربما جنحت بهم الغواية إلى البدايات أو استعرألم الأعماق إلى قمة أشهى الميتات...
...لذا كنا كثيرا ما نسمع عن سكارى غرقى في النهر وسكرانات غريقات في البر .. وكثيرا ما كانت نداءات الغوث تتناهى إلى مسامعنا في دروبنا القصية فلانجهد البال في شراك الجواب عن السؤال.
النهر دائما هو سؤالنا الازلي ... كان يعبر في يوميات مخيالنا مثلما يعبر في تضاريسه .. ويكبرعشقه فينا بقدرما تغرق القرابين في أعماقه .. كلما تعددت القرابين توقدت فينا فتنة السفر في قارته السفلى...
كانت الأصباح تفصح عن شهوة النهر... كان النهريلايل أرواحه .. يضمها ويدثرها بالأعشاب ... فنتساءل هل كان للخصب والرواء أم كان قبرا لزهرات النيلوفر.
لقد رأيت الذراع والعلامة ثم جسدا من تراب القرارة والكفن من قماش الطحالب وأعشاب الخزاللزجة ...
على الحافة كنا نتملى بهلع جسدها الأخضر وأيادي الرجال الضفادع تنتشل ما طفا على السطيحة من رميم.
تركنا خلفنا الباب العتيق المطرز بتوقيعات العاشقين (الحب لايموت ـ راني كنحماق عليك ـ ع +ف = الحب ـ سهام كيوبيد الإغريقي التي تخترق قلب العاشقات ...)
أسرعنا إلى الحافة كانت زهرة النيلوفر في ذات الركن .. جسد ململم في فستان المسامرة ...
وعلى الجبين ما تبقى من بسمة القمر,
على الصدر قلادة لآخرالتنهيدات
على الشفاه بقايا مواويل...
على الربوة أقداحها اليتيمة ...
لم يعد أحد يبكي على ليلاه .. كلنا نبكي زهرة النيلوفر.. نبكي الدراع التي ظهرت ثم غرقت فجأة.
بعد أيام عدت وحدي ألفيت النهرعاريا .. منتفضا وصراخه يملؤ الآفاق .. تمليت طويلا تلك الأمداء المائية الشهية ... انحدرت خلفهم شعرت بخوف طفولي غريب .. ورغم ذلك اتقدت في نفسي شهوة الأعماق مثلهم .. كنت واقفا على الحافة وعلى حين غرة امتدت من تحت الماء ذراع النيلوفر وسحبتني بلطف .. ارتطم جسدي بالسطيحة .. كان الماء ينفذ شيئا فشيئا فابتللت بالكامل .. لم أقاوم هذا الغرق .. حينما لمست قدماي القعر والأصداف والطحالب والأعشاب الرخوة .. عرفت أنني قد غرقت .. لم أقاوم هذا الغرق.. تجرعت الكثير من الماء وما يكفي من الموت.. قلت لها من تحت الماء وكانت الحروف فقاعات تصعد من فمي : ما ضرأن أغرق معك أيتها النيلوفر، حسبي أنني فهمت معنى الأعماق ..

علبة بتهوفن أوLa neuvieme

بكرزة الأنمل تضغطين على الزرالذهبي .. ترتفع قبة العلبة .. يخرج طيف بتهوفن حالما كطاووس في حديقة .. يشتعل من حولك عطرالياسمين .. تنفلت من عقد جواهرها النوتات وتتقاطرعلى مرمرالسولفيج ... دين .. دان .. دون .. دين .. دان .. دون ... دون .. دين .. دان .. دون ... دون .. دين .. دان .. دون ... دون .. دين .. دان ...
ثم يفتح عاشقك المنجمي أزرارربيجامته الزرقاء .. يأخذ سيجارالهافانا .. تقاسمينه المجات بانتشاء كطفلة تتلمظ شوكلاطة (ماكاو). وبينكما تستلقي السمفونية التاسعة la neuvieme على صدرالعلبة السحرية.
سيدتي مازلت لم تصدقي أن التاسعة هبت مع رياح الجنوب في جيب الرجل المنجمي عشية سبت من سنة 1970 كانت مفاجأة لك ، بأن يأتيك بتهوفن أنيقا ، بزي المايسترو الأبيض الأنيق .. والشعرالطويل ، المسدول على الكتفين كما العباقرة العظماء ... تأمرينه بفرقعة الإصبعين طق .. طق
ـ هيا افتح قبة العلبة ثم أوقد تاسعتك كما تشاء مقمرة أم مشمسة.. صحوة أم ممطرة .. خافضة أم رافعة.. بنبراتها ونقراتها دين .. دان .. دون .. دين .. دان .. دون ... دين .. دان .. دون ... دين .. دان .. دون ... دين .. دان .. دون ...

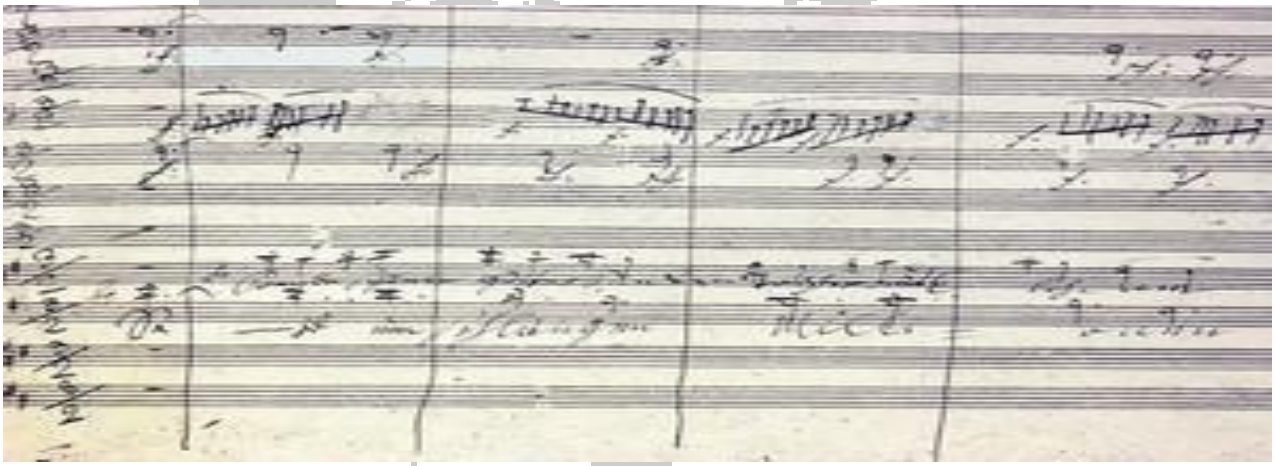

حين بعثت إليه برسالتك معاتبة لم تتوقعي أن يهديك علبة بتهوفن حيث التاسعة أسيرة .. مغلولة بأوتارالكمان العملاق ...في قفص ذهبي نفيس ما إن تفتحي بابه حتى يندلع عبير la neuvieme كالبخور العبق في المزارات المقدسة .. كعطرالكولون الفواح في شارع بودلير بكازابلانكا ... أيضا ما كنت تتوقعين سيدتي أن اليد الكادحة التي صهرت ألواح الحديد بالمطرقة والسندان والنارفي الكراج السفلي .. التي كانت تصفع الهواء فيئن ... ماكنت تتوقعين أن تبعث إليك بعلبة بتهوفن في جيب الرجل المنجمي .. تغفين وتفيقين على نسائمها .. على بروقها .. على هدوئها .. على رعودها .. على حممها ...
لربما تساءلت وأنت تتفرجين بعد عشرين سنة على (التوب موديل) كيف يخرج بتهوفن من جيب المنجمي العائد من دهاليز المعدن العميق .. أنت إلى اليوم مازلت لم تصدقي كيف يرضى بتهوفن بأن يأتيك في علبة سحرية ليعزف la neuvieme الفاتنة راكعا على حافة سريرك عند المساء ... و ما زلت أيضا لم تصدقي أخيرا أن في جيب البلوزة الزرقاء المعفرة بتراب سراديب ودهاليزالمعدن النفيس ترقد التاسعة في انتظارإشارة ملائكية من العظيم بيتهوفن.
يوم لملم حقائبه وودعك في قطارالواحدة بعد منتصف الليل . تذكرين أنه ضمك بقوة وكنت تفتعلين كل شيء لحظة الوداع حتى القبلات كان يقتلعها من شفاهك الباردة كأنما ينتزعها من التمثال النحاسي البارد . لم تذرفي ولودمعة واحدة كما العشيقات الوفيات .
... كان سفره وبقاؤه سيان لديك ..
ولليلة لما عاد طرق الباب كالمختلس . قبلك وضمك بقوة الشوق وألقى بك على السداري في البهو وأخرج علبة بتهوفن .. قال لك سيدتي إضغطي على الزرالذهبي ... و ضغطت على الزرالذهبي فجأة صدحت السمفونية التاسعة بتلك النخوة التاريخية الراسخة واشتعلت في البيت حمى الرقصة الأرستقراطية وحدث مالم يكن في

الحسبان ، تحولت الغابة الشرسة في أعماقك إلى أنفاس من زهر الخزامى والقرنفل وفاح شذاها في كل الأركان والحفافي وكان هو يتملاك بكبرياء وزيادة مثل فارس خسر كل الحروب إلا حربك المشتعلة على ساحة صدرك العريض ...

قبل أن يعود كان الصمت .. كان الصقيع .. ورسائل المنجم الجنوبية المعبأة بعيارات الشوق التي يرسلها مع سواق قطارات منتصف الليل وكنت كل مساء تترقبينه على الشرفة .. تتسمعين في الهزيع الأخير من الليل إلى هدير التاكسي الأبيض .. تترقبين رنات الجرس الكهربائي على الباب الحديدي .. وصعود الحقائب الحبلى بتذكارات أكادير وأساور تزنيت الرائعة وتحنين إلى التماشي معه على حافة الحديقة العتيقة .. والتهامس الممهوربكركرات اللقيا .. وفناجين القهوة المنكهة على الشرفة .. ورغم كل ذلك لم تصدقي هذا الإنقلاب البديع حين رمى بالحقائب مخذولة في الركن وأخرج علبة بتهوفن من جيبه .. قدمها وقال لك إضغطي على الزر الذهبي .. وضغطت على الزر الذهبي . وكما المطر المداهم تسقاطت الأنغام الخالدة من سمائها وأخذك في انخطاف راقص وهادئ على غرار(التوب موديل) ... يده اليمنى على خصرك واليسرى متشابكة بيمناك وحذاؤه الأسود الصقيل يتاخم تلافيف قفطانك الطاووسي المجرور على الزليج الفاسي وعيناكما وسط الطريق تتلاطمان كالخلجان الصافية وبتهوفن بينكما مندسا كطفل مدلل أو مخفورا مثل نبي يزهو بتاسعته la neuvieme ...

دين .. دان .. دون .. دين .. دان .. دون .. دين .. دان .. دون .. دين .. دان .. دون .. دين .. دان .. دون ..
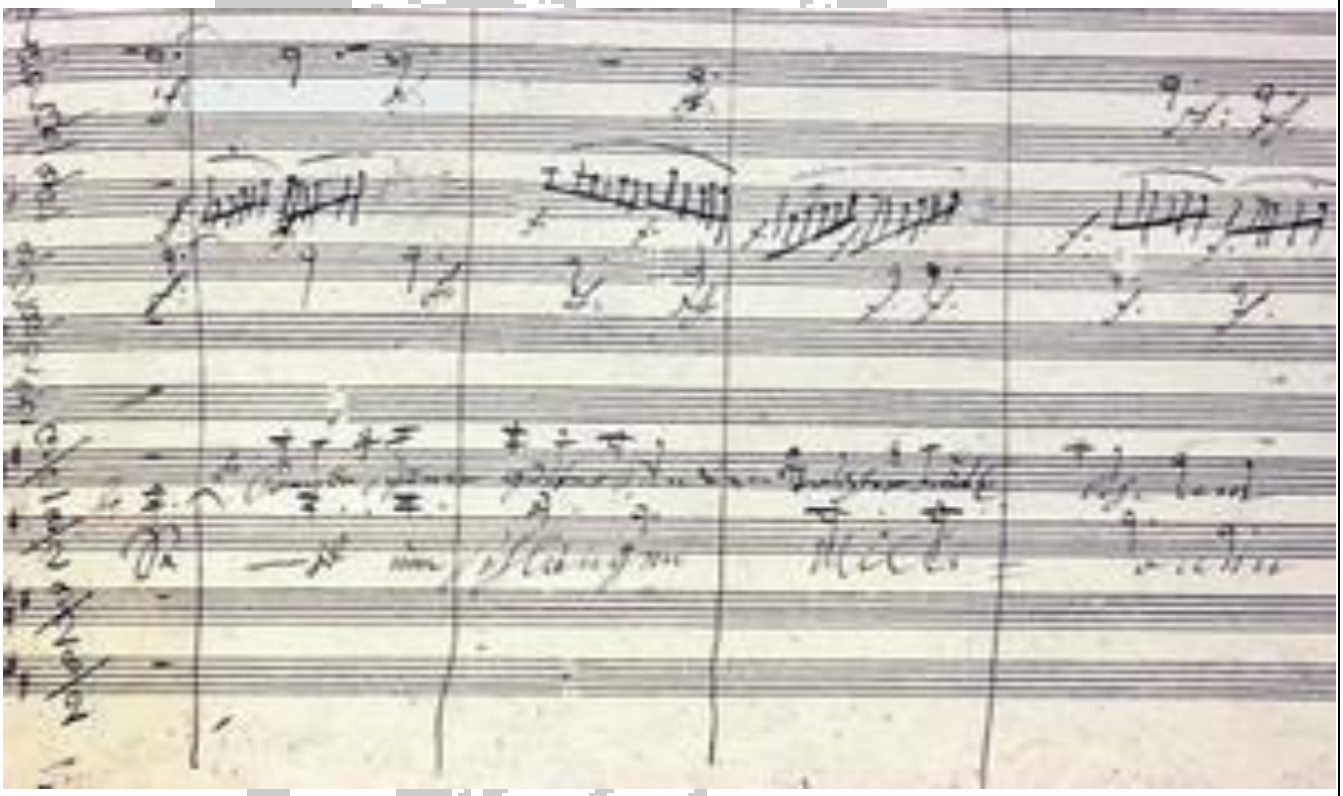
يغلق عليكما الباب .. أجل ، عليكما لاغير .. وينصرف.. ينصرف نشوانا بالميثاق السمفوني العتيق بينكما وهويردد :

ــ تصبحان على خير...

إشارة : الوثيقة المرفقة للنص هي نسخة من مسودة السمفونية التاسعة la neuvieme بخط يد بتهوفن

حروف الفقدان

أمسكت بكفه، وحين ضغطت بحنو ، أحسست كأنني دغدغت رأس خيط واهن أو مثلما بلغت في برهة منتهى ممشى كنت أجهل كيف طرقته ...
سرير أبيض .. وقطعة آدمية من جليد على أهبة الانحلال في كيمياء التراب الأزلي المنعوت بالشاهد ة.
بين الحيطان المتدثرة بأصماغ الصمت السرمدي والأوجاع الجامحة والأنات المنقذفة من حمم الروح .. كانوا قد عبرأولاءك الذين نعرفهم أ ولانعرفهم مثلما يعبرهوالآن متشبثا بتلابيب البقاء ... ويود لونقتسم معه ما جادت به السويعات الهازئة من اصطبار معاند.
عيناه سارحتان في الفراغ المثخن برائحة العقاقيرالممهورة بالمرارة ، تتحدثان بالرفيف والإمعان الموغل في انغراسنا حول مثواه الأخيرعن الرجات الدفينة في أوصال الإرب العليل ، التي كانت تطوح برأسه بين الحائط و درج التراويق وأنبوب الدم الذي يبقرالبطن ويرضع باشتهاء ماكرما تبقى من نجيع القلب ويقطره في صلف معدني أبيض من تحت السرير.
وفي الغرف المتوارية كانت ثمة لجة صاخبة حول المتمددين مثله على أسرة الغياب.. صمت يعم متنكرا خلف أكذوبة السنين .. تعود الهدنة المؤقتة وتمضي الاهتزازات إلى وقت لاحق .. تتفقد الخليلة بارتجاف باد على كفيها ثنايا دثاره الخفيف ومخدته لاستكانة الرأس المحموم ، ثم تهيئ منومات الغياب و قبل انصرافها تتملى وجهه المنحوت بازميل السقم ، وتبصم قبلة على جبينه وها هي ذي الزلازل الجوانية تدك مرة أخرى عالم الدواخل فتنطوي مسافات العمرعلى نفسها بسرعة الرمش الواجف...
والآن كيف فقد البيت معناه.. أركانه ودفئ الحياة فيه .. قلت في نفسي ما جدوى أن يستمرهذا السقف من بعده ولمن سينهمرهذا الضوء على مضجعه المهجورالذي لا تستقيم حيطانه إلا ببقائه.
ثم ما جدوى أن نصغي ، نتكلم و نرى هذا العالم من دون مجاورته.
من مراتع البدايات الى مهاوى الفقدان.
هو لم يكن يعلم أن سفرنا بقدرما كان بحثا عن نبتة البقاء ، فقد كان أيضا رحيلا الى غياهب الانمحاء.
وعلى تضاريس العبورالمارق.. كانت الحياة تتـأبط الغازها وتسخرمن أوهامنا.
أدخلناه قلعة الأسقام .. كان الطابوريمتد الى ما لا نهاية... رجال قادمون من كل فج عميق.. كانوا كالحيتان الميتة التي تطفوعلى سطيحة الأقدار.. يمنون أنفسهم لعل في أكف الملائكة البيضاء ينبسط سحرالترياق.
من جوف غرفة الأشعة الكيميائية كنت أصيخ السمع الى وجعه ..أناته التي ترج المعابروالأدراج ..فجأة عصف النبأ بكل باقات التضرعات ، حين أسرت لها بالخبرالعاصف .. لم تتملك نفسها وذرفت دموعها الملتهبة تحت المنديل خفية .. تقنعت له بالابتسامة الضويئة . أحمد لم يكن يعلم سرسقمه المتلاف لهواء الباطن ولذلك كان يجيب على عبثية الوجود بيقينية البقاء.
قالت له:
ـ أطلب ما تريد وما يلذلك فنحن فى عاصمة الرغبة.
فرد نافثا أقساط الكلام بالزفرات الساخنة :
أجل خذيني معك كي تدغذغ أقدامي رمل الساحل وقت الغروب لأنقش هناك أثرا لذكراي فلربما لن أعود...
ثم أردف وهو يلتقط أنفاسه الحرى : كم يلزمنا من الزمن للشبع من الزمن !؟ فعلى كل معصم منا آلة ترصد العمر.. وحين لانفكر في الموت فمعناه أننا قد انتهينا ، فدعيني أداريه على الأقل بقناع الحياة.
ارتفقت النافذة .. كانت تروم انخطافا منقذا من قلق السؤال الضاغط .. وكانت بعض حشرات تخترق ثقوب وشقوق الحائط المتصدع ... هل لها آلام هي أيضا .. وهل تفكرفي آلامها !؟ .. وفيم تفكرداخل أكنافها المعتمة وفي طريقها القليل ذاك على خط زاوية الركن ، حيث يصير النورلديها معبرا إلى مسارب ديجورها الأليف...

لقد توقفت عن سيرها الخفيض ،لاشك أنها تستخف بعالمنا العاري على منصة النهار.. عالمنا جميعا .. عالمنا الذي نلاحقه من دون أن ندرك أننا نركض ببلاهة نحو مهاوي نهاياتنا .. إننا محاصرون بالفناء ، بالموت ، ومع ذلك نغتربقدرتنا على البقاء من أجل العيش وبقدرما نستطيع!!..
كانت الأشياء من حولنا تغري وتعطينا انطباعا بأن الحياة جديرة بالحياة برغم هذا الثقب الشاسع في طبقة الأحاسيس المخرومة بالكآبة.

كانت الوجوه في الشارع تطفح بالرواء والتبلج ..والأقدام تلتهم ما تبقى من الدروب المتشعبة ، التي وقعنا عليها صدفة وصرنا مسعورين بالترنح على حبل الرهانات الواهية .. وهذه المعابرلا تكشف عن فداحتها إلا بعد أن نستفيق من دوارالاستلذاذ الخاطف .. وهذه الوجوه التي تقايض النظرة بالنظرة الكابية ، هي نفسها ذات الوجوه التي رأيتها بالأمس هناك في مراتع البدايات والتي يقينا سأراها في مواقع أخرى وربما في أزمنة آتية... هي ما فتئت تمشي وتمشي وتمشي باتجاه ملاذاتها الأخيرة. (بالنسبة لي لا يقع هذا إلا نادرا عندما أفتح كتاب الذات وأغور في أسطورتي المنقوعة في حبر السقوط)
فيما ستجدي إذن كل هذه الأعشاب والتمائم النحاسية والعقاقيروالترحال بين الأسرة البيضاء مثل الفراش المكتوي بناروهم الحياة!!!
حملناه الى البيت ...
عشاء أخير...
لاقيام بعده ...
كانت الأيادي تتمسح بجسده المهيض.. شعرنا أن أرواحا عليا تقاسمنا شعائرالمراسيم وتدون على لوحها المحفوظ تفاصيل الاحتضار...
..وفي لحظة ما غفوت، وجدته قد احتدمت فيه الشهقات والحشرجات والتمرغ على سعيرالألم الدفين وكان الليل من حولنا يسري على مهل كأنما يهبه ليلا ضافيا للتملي الى ما صرفه من عمره القصير ..
كان أمامنا جسدا يزحف خلسة الى حافة النزع الأخيرة...
وبين الغفوة واليقظة تمتد اليد الرؤومة لتطفئ لظى الأنفاس بقطرات الندفة العدنية.
أيقنا ألا بد مما ليس منه بد ...
فليتنا .. ليتنا أدركنا معنى هذيانه قبل الإغماضة الأخيرة .

جسد وظل على خط الاستواء

أمام عري المرآة، هناك في العمق الصقيل، اعتدت أن أنغرس...
وكم يلذ لي أن أغزو المشاحيذ كما لو أني فاتح .. فاتح ممسوس بتلك السهوب التي تتقمص اللون والقسمات ... من الداخل، هشمت القشرة كي أتخطى الفاصل بين الغيب والكينونة... هي حالة جبرية كي أقيس لذة المسافة الممتدة كعرقوب قاهر أمام ناظري.
الجسد يأتي على محمله باتجاه ملاذات العاكفين في الانصهارات اللذيذة.. وفي البدء تكون الشهقة الأولى بين العدم والشروع في الترحال المحتوم.
مسافات للإختراق .. العالم في العينين.. ملتف حول مؤثثاته الداعرة، تارة تنتظم وتارة للخبل تمنح قاماتها.
من كوة البدء رنوت إلى الجسد بين دغلها مسوقا إلى حتف المسارات الليلية ... وعلى مرمى حجر ألفيته جسدا يشبهني مقتعدا حذاء ظله.. بينهما عوالم اللالون الأعزل.. أحيانا يخترق الواحد منهم ظل الآخر.. وكأنما ينبشان في مثاويهما عن نبتة التكوين..(يقع كل ذلك في زمن منساب على مجرى التهامس).
يفتح الجسد صدره للنسائم الرحيمة والظل يفضح اكتساح انتعاشه الخلوب في صمت.
ثم تنتفض كائنات اللالون الأعزل مرة أخرى .. من ضفة الليل إلى انبجاس الصحوة الممتدة على سرير السيدة المتسربلة بصخب الولادة واصطفاق الاجنحة.
وفي الأجواف تنهض قيامة الرقصة .. يعب الظل نور النجمة .. الجسد يتطلع لغواية ظله،ثم على خط الاستواء يلتقيان، يتجاذبان أطراف إطباق باذخ، وأكون لهما موكبا عابرا بهما أو قيانوس التوحد... أقف عند ذاك المرفأ الذي تسكنه شهرزادات وعرائس بحور الحبر.. مزهوا أرقبهما ينزلان بخطو متناغم..(هي صورة باتت تحتل ميدان الذاكرة.. وتسعفني عند لحظة الاستحالة، لكائنين منذور أحدهما للآخر، لاترهقهما المعاكفة.)
الجسد البهي يأتي جاهزا، متمنطقا ببسمة القريحة.. في لفائف من القماط القدري.. يهاجر السرادب البدائية.. فجأة يندفع الهواء محمولا على الاوتار الطرية، النقية.. يتعمد بالدم الممزوج بعبق الفسق المباح ، في فجر يبصم زمنه على العنق الصوفي والكمان الأندلسي والزغرودة النشوانة.
راحة الأب المتشققة ذات التورمات الصلدة الراشحة بعرق الخبز الماكر تؤرجح الجسد البض من مأثر الترقب الى بلاقع المفارخ اللانهائية...
من أية بغوة يأتي للظل الوسن البابلي وللجسد اليقظات المقيتة؟ أمن القيافة المحتومة أم من جنون الخطو الأخيذ؟.
يمضي الجسد مدفوعا أو مسحوبا على سكة أقداره ... بين ادلهام مداهم ونهار مستعار وتناسل الازمنة المستبشعة ثم انبعاث الأنثى النفساء بين برزخين فتكون البداية الإرغامية لجسد آخر ينتصب بدوره أمام عرى المرآة، ليعيد اللعبة البذيئة التي يقترفها الأنام وهم أشباه موتى.
قبل هذا التاريخ بزمن ما ، بزمن أسطوري ، التأمت نطفتان خالصتان في أدمة الضباب، حكى جدي الأول أنهما من ترائب تراب القديسين، وكان الجسد متمددا على بطنه يقضم تفاحته الأولى وحين انتهى أحس بمغص فبكي في غفلة من السماء..ثم استوى واستعد للترحال بخطيئته المزمنة ...
فجأة انبثق ظل من الماوراء.. استجمع أنفاسه وفجر زفرة مدوية تشي بما قد يأتي من علاقات فاترة مع العالم والأنثى والحلم ، إلا مع ظله.
فـــاس 1992

ناتالي

هل كانت تعلم ..!؟ هل كانت تحلم ..!؟ صقر سريبرينتشا فقد جناحيه ومنقاره المعقوف ووقع في الفخ .. في القفص الذي نصبته العدالة الإلهية!!

ناتالي طفلة في قامة أسطورة مقدونية سحيقة ... مبتدأ وخبرحكايتها ليلة هبوط صقرسريبرينتشا على

عش المدخنة التي كانت تنفث دخان الأنس والطمأنينة الدافئة.. ذات شتاء عدواني...

في تلك الصبيحة فتشت عن ناتالي في المدرسة .. تحت سقيفة القرميد الأحمرالمعهودة .. سألت عنها الصديقات والرفاق وأسراب السنونو في غابات الزان والسنديان بجبل (التيريبفي) ؛ فلم أعثرسوى على وصيتها على لوح الأردواز ملطخة بدم جدها على قنطرة (زانيكا) .. اللوحة التي قد تكون أخطأتها سلاسل عجلات المدفعية الثقيلة.

في ذات اليوم الذي تعرفت على ناتالي في حديقة سيرك (ماكسيموم) بضواحي روما دوى الخبر في أذني كالرعد .. قال لي رفيقي : أنظرإلى الرجل المستلقي على السجاد التركي هنالك .. الرجل ذواللحية الرمادية المسدولة بعناية والتجاعيد الغائرة .. الرجل أبوها الذي يطفح شقاوة وزيادة هو حتما ليس أباها الشرعي ... وهذا أيضا ما أكده لي الجمركي القابع خلف غرفة الزجاج الغامق .. الجمركي الغارق في بزته الكستنائية على الحدود الجنوبية مع إيطاليا...

ناتالي طفلة بوسنية من قرية (كورانا) ، إذهب إلى هنالك وسترى أن زورقها الورقي ما يزال يطفوعلى

نهر(كورانا) ...

أشعل سيجارته .. سحب قبعة البرنيطة قليلا إلى قفاه وأردف : « إجتثت ميليشيات سلوبودان ميلوزوفيتش عائلتها بالكامل » ثم كررها مرة ثانية وثالثة مشفوعة بإشارة من يده اليسرى التي تحمل سيجارة متوهجة (إجتثت ميليشيات سلوبودان ميلوزوفيتش عائلتها بالكامل) وظهرعلى ملامحنا أنا ورفيقاي الكاميرامان وتقني الصوت تساؤل ملغزعن سربقاء ناتالي حية ترزق !! وتساءلنا عن هذا الملاك السماوي الرؤوم الذي أرسلته العناية الإلهية وخبأها عن النصل الذي مرفي قرية (كورانا) على كل الأعناق البضة ، الناصعة باردا وببرودة دم حقد دفين !؟

لم تكبرناتالي .. مازالت الآن أمامي تمرح .. تعدو وتلعب لعبة الغميضة تحت ردهات وبين مخابئ وأدراج سيرك (ماكسيموم) في ضاحية روما مع صديقاتها الصغيرات الأفارقة والمهاجرين المغاربيين غيرالشرعيين.

حين دوى خبرها في أذني ، ناديتها على التو.. تفرست في عينيها اللتان تشبهان حبتا زيتون .. حدثتني

بإيطالية طليقة مشوبة بلكنة مغربية ... آه لو كبرت ناتلي .. لوعلمت بحكاية الزورق الورقي الذي بقي يتيما على نهر(كورانا) لو تذكرت لوح الأردواز والطبشور والحمامة ـ قال لي الشيخ الذي يلقبه المهاجرون هناك ب (عاليا إزبيغوفيتش) قال لي بغيظ : هؤلاء الأوغاد الصربيين الذي يقطنون معنا هنا .. هؤلاء المرضى البسيكوباتيون يلمحون إليها بالحقيقة كلما أجهزت على كلابهم بركلات جزمتي

الجنوبية .. إلى أين سنهرب معا..؟ بربك قل لي إلى أين ؟ لا يخلوأي مكان في العالم من جنود القبعات الزرق من أقصى آسيا حتى أدغال (الكوت ديفوار) ... ناتالي هي وحيدتي .. تبنيتها عن طريق الصليب الأحمربعد أن تسلمها مع عشرات الأطفال البوسنيين اليتامى من كتيبة الأوتان .. أتدري ما هوأقصى حلمي اليوم ياسيدي الصحافي المغربي .. أتدري ..أحلم بألا تكبر ناتالي .. آه إنني أخشى عليها أن تكبرثم تعود إلى قرية (كورانا) لتفتش عن لوحة الأردواز وحمامتها البيضاء وزورقها الورقي الطافي على النهرالهادئ.

في مطعم (الدولتشي فيتا) كنت أتناول وجبة غذاء بيتزا مع الصحافية صوفيا جارتي مراسلة جريدة (كوريير ديلا سيرا) ومن خلفي سمعت على الكونتوارالخشبي صوتا ما لم أتبين مصدره إن كان منبعثا من قناة الأرونيوز أم لشخص مدمن مخمور يتحدث من خلفي عن سلوبودان ميلوزوفيتش الذي قتلته السكتة القلبية فجأة ... طوت صوفيا جريدتها ورنت إلي بنظرة ملغزة ذكرتني بنظرة ناتالي .. رشفت ما تبقى في قعرزجاجة الكوكاكولا ولوت شفتيها إلى الخلف .. فهمت إثرئذ ما كانت تعني .. ثم أردف الرجل من خلفي بلكنة بلقانية : سكتة قلبية ها..ها..ها..لعبة سخيفة.

شارب " الابنست"

لم يبق في الحانة غير بقايا ... بقايا الأشياء وبقايا يوم يراجع مفكرته على إيقاع بندول مخموروعقربان متعانقان على سريرالثانية عشرة ليلا.
النادلة "ايف " وحدها خلف الكونتوارمنتصبة مثل شجرة سنديان مثقلة بندف الثلج والقطة "مينو" كعادتها تنط إلى ركبة سيدتها ثم الى قارعة الكنتوار لتشمم صحينات التراويق أو لتمشش فقريات السمك المقلي .
قال في نفسه (متى سأنعم بالتحليق مثل الاخرين .. جون وروبير وباسكال وحتى إيف هذه النادلة توأم "مينو" عندما تفرط في التدخين والشرب والكلام العابرحول الانتخابات وقضايا الهجرة والضرائب المرتفعة و...و... تفقد جيوبه ، لم يعثرسوى على فتات التبغ وأعواد الكبريث الفاسدة التي يحتفظ بها لكي ينظف أسنانه، طبعا عندما يكون لديه وقت لذلك ...
دس القفازالصوفي في جيبه ، فيما نسي الجيب الآخر متدليا إلى الخارج كالجورب ، ناولته إيف بيرة أخيرة .. أحس بأكلان رغوتها وعذوبة اندلاقها .. إيف تتنصت لغرغراتها في بلعومه وتختلس نظرات إلى أساريره والمسحة القرمزية حول بؤبؤيه ، قالت (إشرب .. إشرب .. يامحمد ما استطعت فما أقسى شتاء هذا العام).
وأجابها وكأن كلماته تسيل على ذقنه لزجة كالقطران (و سيكون شتاء طويلا .. طويلا ، فماذا أعددنا لذلك يا ترى؟ حطب ، مكيفات هواء ، شامباني ، مواقد كل هذا لا يكفي إذا ما ضيعنا ما تبقى في أيدينا من دفئ إنساني ،) قال هذا وعيناه مشغولتان بالنظرإلى لوحة " شارب الابنست " ليبكاسو.
لم يبق من الأضواء سوى أباجور خافت أحمر قان متدلي فوق رأس إيف .. كور يديه .. نفخ في تجويفاتهما ثم قذف بجسده على حين غرة إلى الشارع كأن شخصا ما دفعه بقوة من الخلف وفي حقيقة الأمر لم يكن راغبا في الانصراف، بل ما حدث له وقتئذ مثل شعورنا حينما ننهض دون أن نحدد ما سنفعله فيما بعد...
تحت قدميه ، تتوارى مربعات الطوارالمطلية بالأبيض والأحمر .. خطواته تقع على المربعات البيضاء تلقائيا .. صدر منه زفيرثم أعقبه صفيرتوهمه أبيض هو أيضا وعائما في خواء الشارع .. وها هو يتحول بدوره إلى كائن تلقائي مجرور إلى منتهى شارع "سان كاترين " حيث حديقة الطيور "أيكزوتيك" المتلقعة في صمتها المسائي البارد و حيث تركن خلفها قرب المرحاض العمومي غرفته وهي من صنف أستوديو كما يشاع عند المغاربة والملونين و المنبوذين هنا ، غرفة ضيقة مزينة جدرانها بأبخس لفائف أوراق الديكور..
مصباح واحد .. فنجان واحد .. كرسي واحد .. سريرلشخص واحد .. وهناك فوق التلفازصورته الوحيدة حين كان طفلا طليقا هناك في شساعة الصحراء.
في الغرفة إذن رجل واحد.
أصاب شفتيه تشنج مثلج .. تفقدهما بأرنبة لسانه فلم يحس بشئ .. لسانه داردورة في فراغ .. دورة قد تشبه صفرا مترهلا أو بيضة فاسدة .. حاول تمطيطها أو على الأصح تشغيلهما قائلا شيئا من هذا القبيل " أشرب إذن أنا موجود" فتطاير إثرئذ بعض رذاذ اللعاب على وجهه فتذكروهويخطو باتجاه نافذة الاستوديو كلام العربيد باسكال (السكر يبدأ من الشفتين) ولكي يتأكد من ذلك تحسسهما ثانية فتهيأ له أنه قد عض على أصبع نقانق نيء وقال في نفسه (سكرت إذن .. وصدقت يا باسكال).
قام يذرع الأستوديو .. يداه متشابكتان خلف ظهره ... بدا ظله على الجدار المزين بطيوراللقالق مثل كاريكاتور طائرسوي على عجل على إحدى صفحات جريدة Le canard en chainé l . أحس بعطش حار، ذات العطش الذي يتبع عادة إفراطه في السكر .. فتح الصنبورالفضي، فصدر منه عواء مبحوح (عوو.. عوو) .. فأيقن أن الوقت قد تجاوزالثانية عشرة ليلا و في مثل هذا الوقت .. في وقت مقيت كهذا يكون حارس خزان الماء الرئيسي في الحي الإداري قد أقفله تماما وغارق في غطيطه.
فجأة سمع طرقا خفيضا .. لم يستطع تحديد ما إذا كان على باب الاستوديو أم على باب جاره الجمركي الذي يفصل بينهما حائط من البناء المسلح . وحدس أخيرا أن شخصا ما قد قصده بالفعل وغمغم في نفسه (من

يكون هذا الوغد فالواحد منهم لا يقوى على تحمل نفسه حتى، فكيف له أن يتحمل رائحتي وسحنتي ، ثم ماذا سيربح من مهاجر بئيس مثلي يراه مندسا في أشيائه الصغيرة والكبيرة ، في مصعده ، في متجره ، في مصنعه ، في قطاره ، في تلفزته وجرائده وعموما في خبزه وثقافته .. فأنا أعرفهم جيدا .. جيدا، يقولون لك Salut باقتضاب مقتركأنهم يدفعونها نقدا وأنت لاشك تتوقع هذا قبل أن ترتطم بأحدهم في الأسانسير .. وعلى كل حال لن أفتح قبل معرفة من يطرق بابك .

أصاخ السمع لوقت قصير، و المؤكد أنه لم يدرفيما إذا كان طويلا أم قصيرا غير أن الطرق عاد للمرة التانية وفطن إلى أنه قد زاد عن الطرق الأول بواحدة كانت ملحاحة مضغوطة ، كأنها لرجل مطارد في وقت متأخر.

دس المفتاح في جيب المعطف الذي بقي متدليا كالجورب قبل حين (هل تتذكر أيها السيد ، حسنا ، ما أعظم الوفاء .. الإنصات الجيد وفاء) قلت دس المفتاح و دفن سيجارته بين لحمة الاذن وصدغه المشيب ... كان لايقوى على المشي قيد أنملة كأن قدميه مكبلتان إلى الخلف بأصداف مطاطية ... كانت المسافة بين المنضدة والباب لا تتعدى بضعة أمتاروم ذلك فقد كلفته وقتا أكثرمن اللازم أوهكذا تهيأ له على الأرجح .. في الخطوة الأخيرة و بينما هو يهم بفض عضو المزلاج دوت ضربة أخرى.

كانت هذه المرة بقضبة يد مكورة من دون شك... أزاح غطاء عدسة الباب وطفق يراقب بعينه اليمنى .. معطف من الفروالرفيع الأبيض الناعم ذكره بالقطة "مينو".. يد بضة بيضاء تتلاعب أناملها باهداب شال اسود .

لم يصدق ما رآه بأم عينه ، فهولم يعقد موعدا مع بائعة الهوى ولا مع فتاة رصيف ولم يهاتف مديرة مأوى الذعارة المنظمة منذ حادث الميترو حين اكتشف بالصدفة أن السيدة التي كانت ترافقه ليلا في مقصورة الطيجيفي TGVهي رجل من الشواذ جنسيا حتى بات يشك في حقيقة كل الأشخاص الذين يصادفهم وتلافيا لكل هذا وذاك من صداع الرأس فهو قد قررأخيرا أن يعدل عن فتح باب الأستوديوثم إنه غيرمستعد مهما يكن من أمرأن يفسد على نفسه متعة وحدته بكلام مسلسلات وسجالات TF1 فهو يعرف بالتجربة أنها لن تفضي إلى مخرج..

بعد صمت طويل ، صمت منحه القدرة على إدراك ما يحيط به وما لا يحيط بدا كأنه يتأهب لوقوع شيء ما ..شيء يمكن أن يقوض في أية لحظة هذا الصمت ، كأن تعصف الريح فجأة برتاج النافذة أو باطارصورته الوحيدة فتنفلت من مشجبها ثم تقع على الارض وقد يوقظ هذا العجوزالمتقاعد ويكلف نفسه عناء النزول اليه ليستفسره في أمرما يحدث وعلى كل حال فقد صار يتمنى في صمته ألا يقع شيء من هذا أوذاك ولذا فقد حاول تفادي ما يمكن أن يحدث ودنا من النافذة فلمح حارس العمارة وسيجارته في فمه متوهجة مثل عين مارد حمراء.

دلف إلى المطبخ ليعد فنجان قهوة مركزة بالحامض.. ثم سحب ورقة بيضاء ، وخط عليها كلمات أولى لقصة قصيرة محتملة يكون مطلعها : (لم يبق في ألحانه غير بقايا .. بقايا الكائنات .. بقايا الاشياء ، وبقايا يوم يراجع مفكرته على ايقاع بندول مخمور وعقربان متعانقان على سرير الثانية عشر ليلا). ..

كان في كل مرة يطالعها يكتشف سخافة ما تحمله بين السطور .. وبدون تردد أضرم فيها النارواألقى بها من النافذة و تابع تأرجحها في الهواء مثل قذيفة حتى وقعت بين قدمي حارس العمارة الذي كان منشغلا بمسح نظارته.

فجأة سمع فيضان إبريق القهوة .. أوه لقد نسي قهوته كالعادة أوبالاحرى كان مرغما هذه الليلة على نسيانها.

في الصباح صحا على إيقاع ارتطام قطرات الصنبور بسطت المغسلة. إنه يسمعها من تحت الملاءة طن .. طن .. طن .. لقد دشن يومه إذن بهذا الإيقاع المائي الرتيب ، المقرف وبذلك الشعورالذي ينتاب المرء صباح الاثنين و هو يتأهب لركوب ناقلة المصنع.

شعر بغثيان و تذكر الشاعرريتسوس (هذا الغثيان / ليس مرضا / انه جواب) هرع وأطرق برأسه من تحت الصنبوروقتا كافيا كي يسترد انفراجه الجوفي، سمك مقلي .. رغوة البيرة و صوت جاره الجمركي يردد مع شارل أزنافورأغنية خفيفة .
فجأة عطب صوته وتحول إلى سعال ديكي شبيه بعواء الصنبور (عوو .. عوو .. عوو) ثم اندفع السائل إلى البالوعة محملا بخليط الستيك بالشامبنيون وتشكيله من السلاطة وكانت رائحة الحموضة الخبيثة التي تسربت عبر الثقوب والشقوق ايذانا بيوم غير عادي.

فاس في 1989

سوناتا من قبل هذا المقام

من الأجدى ان يتلاشى الصمت الذي تتلبس به طلاوة الجدران : قلت لها .
...الرمادي ، يشق أديمه القديم داخل الممرات الجوانية ؛ صرنا نرى الحياة بذات اللون، فما من لون أمامك أيتها المستلقية على شراشف القلب سوى الرمادي .. لذا ها أنت تقررين أن نستنفرالعدة كي نمحوالرمادي من جزء كبير من أثوابنا،وأشيائنا...جزء كبيرمن مخيالناعلى الأصح.
أرتشف فنجان شاي بالنعناع المكناسي وعيناي على الرمادي والصمت.. .
خمنت أنه يصعب علينا أن نلغي الصمت بقلب الرمادي كما تفعل يد بجرة قلم ؛ لكن أي لون هذا الذي سيكون أو سيعلو طلاوة الحيطان ...؟
حين علقت روبتك المشجرة على مشجب الصوان ، سمعت نداءات الليل بها رنين عطرك الشرقي العنيف ورائحة خطواتك على سطيحة (الزليج) الصقيل.. أدركت أن السوناتا ستبدأ بعد قليل ، وفي تقطيب حاجبيك النونين المعرقين لمحت ذاك القرف من اللون الرمادي الذي يسورنا ويخنق فينا الرغبة في الانتشاء بهذه السوناتا التي نحس كما لو أن (فاجنر) قد ألفها من أجلنا فحسب .. سوناتا مترامية المقامات مثل حقل من شقائق النعمان وزهورالمارغريت الآبقة ، وأنت تقاومين الفراغ والرمادي ، وأنا أمامك على المقعد الهزازمثل شاعرمترنح ، أدخن لفافتي وأرنو إلى ظلينا المتعانقين في غفلة منا على الجدار ، وددت لو فارت منهما نافورة من قوس قزح وشفطت الرمادي مثلما تشفط مكنسة (فيليبس) الفتات من مسام (الموكيت)
حسنا .. قلت لك : تعلمين أننا لم نطرد من جنائن حلمت بها بيداء النفس من قبل ، بل ألفينا نفسينا نتسكع هنا بين حيطان الرمادي .. ثم إن انغمارك فيما سيأتي كان كفيلا بأن يغشي عينيك عن لعبة الرمادي .. والأدهى من كل هذا أنك سابقت إلى دق آخرمسمارفي صدري ثم أوقدت تلك الابتسامة الوميضة والرعناء وأنت تتأملين لوحة (الموناليزا) التي كنا قد اقتنينا نسخة رديئة من طفلة شقية في مقهى (النهضة) ؛ الطفلة التي تشبه بائعة الكبريت.
أتذكرين تلك الرقصة الشبيهة بعصاب (الفلامينكو) ونحن نهم بترتيب أول دخلة مثخنة بالأحلام والأوهام الحمقى ؛ قلت حينها : أخيرا آوينا الى بيتنا المتسربل بأحلام اللبلاب ... لست أدري كيف أننا وقت ذاك لم نهتم بالرمادي .. هكذا سهوا منا اكتفينا بنظرات مارقة ونزلنا الى مساء الشارع المحفوف بالنخيل نتوسم مهرجان الحمام ونترنم مع سرابات (الحسين التولالي) في ساحة (الهد يم الباذخة) حيث مددت ساقيك الصقيلتين في انتشاء مرح على تيراسة حديقة (الحبول) .. لمحت في عينيك شمس نيسان وشقائق النعمان وأزهارالمارغريت و لوحة (الموناليزا) مرة أخرى وكأس (البناشي) بين أصابعك يقاوم كماشة النعومة كي يحط على الشفة المنشدخة بالشهوة السحيقة.
كان المساء يزحف الى التماعات المصابيح و الوشوشات ورنين الفناجين في البولفار...
مساء الخير أيتها السوناتا المندسة تحت أزرار المنانة الدمقسية .. بعد قليل سيتعب الشارع ولا نتعب ، والجلاد (فاجنر) يرج سمفونيته الأخيرة .. اتفقنا بل تواطانا مع (فاجنر) فخلنا أن السوناتا تبدأ من صخب الشارع .. مفتاح (صول) ثم رعد الطامبور و دوي الكونترباس على (الدو) .. كنت المايسترو والجوقة الخديمة في أعماقي كانت مذغانة لاشاراتك الاميرية . .. قلت في نفسي بكثير من الإغتباط (مزيدا مزيدا يا (فاجنر) ومزيدا أيتها السوناتا النيسانية ، وسّعي من أزرارهذه اللحظة ، ودعيني ألوذ إلى ظل دمي الذي تلعقه ذئاب الموسيقى.
مكناس

أراجيف الوسادة

قد يكون هذا الوقت الذي يغمرني بدفاقه الشفيف ..الأزلي وأنا اسهو بين رقصة القلب وتطواف الشمس اللانهائي.. قد يكون هذا الوقت أعظم لعبة لا تليق بالمراهنة لروح وجسد يساوعها ويكدس حقيبة العمر بجمر الدقائق.

ها أنا أضبط الساعة مرة آخرى على فجرزائف ، ثم في لحظة ما من الغلس أمد يدا جذلانة بالسبات لأخرس الرنات المقرفة التي تواطأ الزمن معها في حياكة معزوفة الديك الرابض في رحى الساعة الصينية ...

أقطع مرغماغواية جسد مسافرفي حكاية حلم بابلي لا أفتقد فتنته إلا بعد أن أشرع رتاج النافذة كي أنبش في رفوف الوهم الغبر وأرتب صورعالمه الأسطوري المنقوع في الدويات...

أدشن الآن فجرا آخر.. أفتح عيناي على علبة مهدئات ... وأتلوما تيسرمن آي التفسيرفي نفسي لعلي أفكك أراجيف الليل وذخائرها الممهورة بأصباغ الوهم ...

أجدني اللحظة مثخنا بالألوان والاشكال الهولامية وأشياء أخرى منسية لازمتني مدى تسفار الليلي.

لحظة استذكاروإمعان فيما كان ظلي قد دونه من مداخر الروح على كراس الحلم وكان يرشني بطلعات نساء مدججات بالرواء .. نساء تتمسحن كالقطط المدللة بصدري وتجعلنني مختالا كالهدهد بين معابر الحدائق وتقلن لي يوم : "عم مساءا أيها الحالم"

ألهذا فقدت طعم المعنى في انوجادي النهاري حين انفضحت أمامي لعبة الإغماضات.

فجأة وجدت الحدقتين مفتوحتين .. على حافة المهاد كانت سيدتي تخلل دؤابتي بمرشة الورد. قالت : " باسم الله عليك ... أفق .. أفق .. فأنات هذيانك تمتد وترا من رباب منشدخ وجسدك يهتز كما لو أنك في غمار ارتجاج".

خاتلتني يدها في أوج الكابوس.. انتشلتني من بنج غريب .. كنت مرتبقا في شراك خيوط عنكبوت خرافي ، كلما انعتق عضو من أطرافي ، اشتبكت الاعضاء الاخرى بخيوطه.

كان نداءا مرأة يأتيني من غرفة ما.. أدراجها مشوبة بذبال خافت يرشح من قنديل سقف عتيق.. يتردد النداء وأنا في غمرة الشراك العنكبوتي أرد على النداء بالرعاش المتواتر.. وامرأة ثانية من ضفة الليل الأخرى ... امرأة تستعيروجه أمي، رأيتها تستفل الادراج وتتعثرفي تلابيب فستانها المشجربعراجين التمر.. ثم تمد لي مهدا من يدين كبيرتين .

ـ هي لم تكن غيرسيدتي التي تلاطفني على جنب المهاد وتضمخ ذؤابتي بماء الصحو...ـ

همست لها أن دعيني أسترد أنفاسي وأسترجع جسدي المفقود وأرتب إيقاع القلب على عزفه المألوف.

كنت ممددا في باحة ممهورة بطلاوة الأضرحة الخضراء .. تحت مسقط نورالقنديل العتيق .. جسدي خامد وشيء ما بهيأة الدنق يطبق على أتلام الصدر... لم أتخلص منه إلا عندما نزلت المرأة التي تستعيروجه أمي لتهش عليه بشربيلها

لم يبق من ذلك التواطؤالملغز غيرخفقان حثيث وتعاويد هربتها الذاكرة من أغوارالوسن.

وقفت .. قصدت المغسلة .. لطمت وجهي بحفنة ما ، فألفيت الأراجيف تتطايركالخفافيش الهلوعة وتحوم في قيامة حول رأسي.. فتحت الكوة فخرجت جميعها، وفي حقيقة الأمر لم يخرج شئ ولم تكن هناك عنكبوت خرافي وأنا لم أبرح مهادي حتى والسيدة التي كانت على حافة السريرما تزال تراقبني بحنو وافر وتؤنبني على تسفاري السندبادي في براري الليل وحيدا.

هكذا.. بلا جسد كنت .. وجدتني أعبر مدنا لم تحلم بها خارطة.. أعثر فيها على بعض من بعضي.. أشياء حقنتها بدم المعاكفة.(ما بالها تلاحقني في أرخبيلات الحلم وتوثرفوضى مدن وأحبة بلا أسماء...؟ أ لهذه الدرجة يصير بمقدور الوسائد أن تدس كل هذا العالم المتماوج تحت رأسي ... يكفيها فقط أن أسدل الأحداق وأقطع شريان الأضواء كي يندعي العالم مصفدا تحت نهارالحقيقة كي تشاغب أهازيجه المخبولة بنوبات الركض...

يجوز لنا إذن أن ننسج في الرحيل الوسني أجمل الفداحات .. أن نعبث بنواميس الكون ونسخرمن قيافة الماء للماء ونمسخ لون اللون باستيهامات الهزيع.
ما تزال الرؤى تزدحم في رأسي .. والعنكبوت أما زال خلف الوسادة ؟
قلت سأسرد أراجيفي فلربما منحتني السيدة التي تستعيروجه أمي ملاذا يريحني من ثقل الدنق الضاغط على صدري .
كان بصيص يوم آخريخترق خصاص الباب والعالم الذي غادرنا بالأمس يضع حقائبه جانبا .. يدعك عينيه وينبؤني عن حكايا رائقة تشرع ذراعيها لظلي الحائم حول نجمة الحلم المتخضبة بلون الالتباس .
لست أدري كيف تخصبت رؤى الأراجيف الليلية في رحم النهار، و كيف اجترت العين عالمها في غفلة مني.
يقينا أنني كنت أنحت على جدارالحلم مطافات أخرى سوف تتسع مثل الدوائر المائية وتغريني بالإيغال في غرائب الاحلام...
لعبة جميلة إذن ... استغراق شهي بطعم الانخطاف الى المسارح المنداحة حيث أمشي ولا أمشي ثم أعود مثل فارس أسطوري محملا بزوادات البلور والياقوت واللازورد البراق أومتفصدا بعرق الخسارات...
حين زارتني أمي، حكيت لها عن العنكبوت الليلي ... أسندت رأسي على كتفها الوارف.. شملتني بأمان رهيف وبددت عن ناظري غلالة التوجس بلمسة الهناءة والتأويل المبسام.

كأس نزارقباني

إهدئي واستقري في سرك الدفين .. أنت لي .. ولن أترك يدا ثانية إلاّ يدي ترفعك إلى شفاه الحقيقة.
أو.. قفي في قرارة الصمت ، مثل لقلاق نيسان على ساق واحدة ورغم هذا فهولايتعب من ملاحقة الآفاق .. دائما على ساق واحدة ومع ذلك أيضا لايفكرفي الرحيل عن قمة جبل التأملات.
ذكراك ..أجل مافتئت أذكريدها ممدودة كالطعنة المشتهاة .. كفنن زهرالجلنار.. وأنت بين أناملها ملآنة بنكتارالعشق القباني لمّا كان فصل العطش البيدائي يهدرفي باطني كقطارالفحم الحجري.
ناديتك عبرنافذة المكتبة العتيقة أن هاتها فكل جسدي تفاصيل ظمئ راسخ كصخرة جاثمة على أنفاسي الحرىّ.
قلبت ناظري في كل الأمداء فلم أجدك .. تسمعت لخطاك .. كانت تأتيني خفيضة من خلف المكتبة العتيقة ، وبعد لحظة هللت علي بقامتك الغنجية ومددت إلي كأس الشاعر.. كأسنا القديمة ذات الساق الواحدة ؛ وتحدثنا تحت إفريزالمكتبة عن أشيائنا الصغرى وقضايانا العربية الكبرى .. قضايا العشق العربي المنقوع في دماء الإحتلالات .. وقلنا لما يكون قدركأسنا أن تحرس عشقنا على ساق واحدة ... وفكرنا كثيرا ونقبنا في ذخائرمكتبتنا العتيقة وكل كتب التراث الإغريقي عن إسم هذا (الديزاينر) العبقري الذي أغرق عشقنا العربي في قعرهذه الكأس العرجاء ومات !! ثم عدنا من حيث بدأنا حديثنا المسائي عن السيدة بلقيس التي اغتالتها أشعارزوجها نزارفي بيروت نهارا وأمام عدسات الصحفيين.
لم أجرؤيوما على البوح بسرها السحيق .. الدفين .. كانت ملآنة أم فارغة .. غافية أم يقظانة منتصبة على ساقها بين دواوين نزارقباني ، فأنا لاأرشف منها غيرما أعبّه من سرها اللذيذ..القديم...
حدث ذلك سنة 1988 ، كنت في ألمانيا دسستها في حافظتي مثل قنديل أخضر.. إستقليت قطار(الغزالة) الذي رسم على جؤجؤه غزالة سريالية .. غزالة بقرن واحد يشبه خنجرصنعاء أومراكش أومسقط وأنصاف قوائم ولونها هوأقرب إلى لون أتانة مقالع الرمل منه إلى لون غزلان المروج.
ملحوظة : أخبرني الجابي أن هذا الرسم هومن شغل فنان إحدى ورشات المطالة ومن المؤكد أن هذا الفنان مثله مثل الكثيرمن الفنانين العرب لايفرقون بين لمسة الفرشاة وضربة المكنسة !هههههه(في ذلك القطاروعلى طول الجدارالعازل بين (بون) و(برلين) أخرجت كأسي ذات الساق الواحدة..
أفرغت من التيرموسة جرعة معتقة من قهوة (الأرابيكا) الأصيلة وطفقت أرشف وأتلمظ بانتشاء مصرفا ناظري عن عيون الرقباء الزرقاء حتى أنني لم أعبء بطلقات نظراتهم على ظهري والغزالة السريالية تخترق بنا الغابات والمسارح الخضراء التي لاحدود لها.
وأمس الثلاثاء 3 أكتوبر2006 كنت كما هي العادة في وحدتي اللذيذة وعلى الساعة التاسعة هنا بتوقيت لندن طرحت القلم جانبا وقلت في نفسي مالداعي لكتابة هذه القصة الرديئة بعد سنوات على مصرع بلقيس تحت وابل كلاشنيكوف قصائد زوجها نزارقباني ؟ شغلت التلفازعلى دراما أخرى من برنامج الإتجاه المعاكس وبينما كان فيصل القاسم يسعل ويستعطف ضيفيه العربيين المتعاكسين لالتزام الهدوء : (بس لحظة من فضلك دكتور!!) ثم يديروجهه للجهة اليسرى (بس لحظة من فضلك دكتور (!!
ألفيت قميصي مرقطا ببقع دم حلاقتي الأخيرة وبقع غازوال على الياقة وكان طنين وجلبة ما تصطخبان في الجهة الشرقية من رأسي ... أقفلت التلفازوأشفقت على الدكتورفيصل القاسم وتخيلته بعد 500 سنة حاكما للولايات المتحدة العربية التي لن يبقى فيها من الجغرافية العربية سوى عظام خطوط الطول والعرض .
ومن نافذتي ألفيت الشارع فارغا وتساءلت عن سرإختفاء الناس الجماعي هذا المساء وتذكرت أن إتجاها معاكسا آخرتدورحاه بين فريقي (برشلونة) و(ريال مادريد) حول من ستفوزبكأس الملك .. أما أنا فقد عدت إلى كأس نزار قباني ... وجدتها واقفة بانتظاري على ساق واحدة بين أوراق مسودات قصصي الرديئة والفاشلة.. .

في انتظارPDG

-1يوم ككل الايام

أصعد الادراج ، و أمشي في كولوار رمادي طويل ، باتجاه مكتب سيادته ، مجهدا نفسي حتى لا تفلت من كعب حذائي أية طقطقة زائدة ، ويخيل إلي كأنني أمشي على الحبل أو مثلما يتهيأ للبعض في كابوس مفزع أنهم يعدون في فراغ لا قرارله...

وأنا أمشي .. يسقط ظلي أمامي على البلاط الملمع ، ظلا طويلا يقصرشيئا فشيئا كلما دنوت من مسقط الضوء .

و ككل يوم تقع عيناي الذابلتان على يافطة الرخام الايطالي التي نقشت عليها بأحرف بارزة "مكتب السيد الرئيس المدير العام ". وعلى الجانب الأيمن من بابه كرسي مهترئ .. متداعي المفاصل ، أحدث احتكاك مسنده بالجدار خدوشا غائرة .. سأقف بالباب هكذا مستقيما مثلما تعلمنا أن نقف في صفوف المدرسة الابتدائية ... وأهم كالعادة باشعال سيجارتي الأولى ، غير أنني أعدل عن ذلك عندما أتذكر فجأة كلام الشاوش "رحال" العجوز (ممنوع التدخين أأأأأسي) طبعا هو وأنا نعلم باتفاق العادة أن هذه ال (أأأأأأأأسي) يقولها لي قدحا وليس احتراما ..ثم يردف (إذهب الما لمرحاض هناك في القبو وافعل ما شئت ...

.. ويبللني شلال الخجل العارم ، فأستعد لكل الاحتمالات و الاسئلة المباغتة وعلى كل حال فغياب البيديجي هذه الايام أعطاني على الاقل فرصة التمرن على إجابات جاهزة على استفساراته المحتملة .. سأقنعه - قلت في نفسي - بل سأقنعه وحجتي في ذلك لغة مقهورة تتفصد عرقا .. سأخبره في البداية بأنني جئت لزيارته لليوم العاشروبأنه كان في مهمة في نيويورك وأهنئه طبعا على عودته بالسلامة "على سلامتك اسيدي .. " ثم انتظرمنه ردا لائقا "الله يسلمك أولدي " مثلا غيرأنه يلزم صمته الصارم والمألوف وترمقني عيناه كعادته من فوق نظارته المذهبة .. استجمع أنفاسي لأسترسل في مطلبي بعد أن أكون قد غيرت من وقفتي من اليمين إلى اليساركي أريح جسدي المرهق من فرط الانتظارات ، ثم يولع هوسيجارته الفاخرة من نوع "الكانت "

-إنه يدخن "الكانت" - قال لي الشاوش في اليوم الاول . "ليس في مكاتب الشركة شخص يدخن "الكانت " غيرالسيد الرئيس " و أمهله لهنيهة ينهم "الكانت" بشراهة وتلذذ حتى إذا ما استرد توازن مزاجه أفتح آنئذ ملفي دون تردد وأنا واثق بأن أوراقي سوف تزعجه ولذلك سيقول لي ناهرا إياي "قلت لك بلاتي شوية " و عيناه على المروحة في السقف تطحن الهواء والذباب والنمل الطائروالنحل والفراشات العابرة سهوا وأعلم بعادة الإنتظارأنه سيضغط بمقدمة حذائه على زرالمنضدة .. يرن جرس ما .. يدلف العجوزمقوس الظهر ، تبدو طيات بزته الكاكية ، متآكلة عند الرقبة والكمين وفتحة الجيب على الخصوص ... يقول بصوت خافت مرفوق بانحناءة خفيفة "نعم سيدي الرئيس " وسيأمره بكلمات مقتضبة وإشارات وجيزة وحادة وسيجارة "الكانت " تتدلى في استرخاء و دلال في زاوية فمه اليمنى و رمادها المتصدع يوشك أن يسقط على جهة ما في الكوستيم الرمادي الأنيق .. . "ديه إلى مكتب إيداع الطلبات في الطابق السفلي "

ويرد الشاوش العجوزمرة أخرى "نعم سيدي الرئيس "

- قل لي أين تلك السكرتيرة ال ...قل لها تأتي ومعها براد الشاي أوعبوتي....

وكالعادة سيخرج العجوزوأنا أسيرخلفه متأبطا ملفي .. أسير خلف قامة من السنين .. لا أحد منا يسلم من لعنة هذا الزمن .. هو بجسده المنهوك .. تبعات الحياة .. النكد اليومي ..أما أنا فلا أزال في الخطوة الأولى ألتمس مسلكا في المتاهات المعتمة ...

في الطابق السفلي سيقف العجوز أمام باب رمادي متين وسيقول لي بعينين مكسورتين قبل أن يدلف وحده " ياولدي ستبقى مدى الحياة بين هذه المكاتب طالع، هابط مثل الدلو"

-2اليوم العاشر

استفقت .. طفقت أحدث نفسي في صمت .. شعرت في لحظة ما أن كل شيء لم يتزعزع أمامي وتيقنت من أن الصمت يفسد على الإنسان اكتمال ذاته في الواقع .. ترى ماذا فعلت بالامس ؟ لست أدري !! كنت قابعا في ذات الركن وجها لوجه مع هذا العجوز أقرأ في تجاعيد وجهه مكر الزمن،جالسا كان على الكرسي المهترئ

مثل ليمونة ممصوصة يدخن ويدخن .. ينفث الدخان مثلما يقذف بصقة على شبح ماثل أمامه ثم ينهض في تباطؤ وكأنه سيهم بفعل شيء ما ... كأن يغلق مثلا باب مكتب ليس به موظف أو يتفقد صناديق المراسلات أو يسأل عن الكاتبة التي تشاغبه كل صباح... لقد صرت مثله أعرف وأنا مغمض العينين أي الأبواب فتح من خلال صريرها الخاص ، عالما بأدق الامور داخل ردهات الشركة أضبط ساعتي مع انطلاق ضربات الآلة الكاتبة على الساعة التاسعة و النصف وتوزيع فناجين القهوة والشاي مع العاشرة وزعيق الشاحنة قبل الحادية عشرة وقدوم ساعي البريد في الثانية عشرة إلا ربعا و بعد كل هذا بقليل أسمع نقرات حذاء العجوز قادما ليخبرني بكل هدوء بأن السيد الرئيس المديرالعام يعني PDG سيمدد من زيارته لنيويورك نزولا عند طلب سيناتورصديق أولسوء أحوال الطقس بالمطارهناك أوعلى الارجح لتعثرالمفاوضات بشأن صفقة ما ... وعلى أية حال فنيويورك قريبة ياولدي قريبة إليك أقل مما تتخيل والسيد الرئيس قد يحضرغدا لامحالة ... ويربت المسكين على كتفي بلطف ثم يمسك بيدي ويستدرجني إلى الادراج ، فالطابق السفلي فإلى الباب الخارجي و أعود من حيث أتيت .. مكسور الخطى .. أرنو الى الشارع الصاخب في مدينة غريبة الاطوار تكبرأحياؤها مثل الفقاقيع ... وحين أقف في مكان ما .. في وقت ما .. أراها ترتدي معطفها الشمالي وتدير ظهرها لي .
أجلس على كرسي الإسمنت في مرآب الشركة فتلسعني برودته وأستحمل ذلك على السير في شوارع لازالت تحمل أصباغ قديمة وإشارات مروربين الخطوة والخطوة .
كنت حين أصل الى هذا المكان تعتريني نزوة القفز .. لكن ماذا بقي.. المقهى والحديقة مقفران ..الكراسي الإسمنتية يعلوها الغباروبعض أوراق الصفصاف الصفراء .. أمكث في مكاني أفتح ملفي من جديد .. أتفحصه .. ملف جاهزإذن فمتى سيعود السيد الرئيس ..؟

-3في يوم ما

استقبلني العجوز بابتسامة عريضة أوحت إلي بأن سيادة الرئيس قادم اليوم لامحالة .. في ردهات الشركة حركة غيرعادية .. يفتح باب هنا ويغلق باب هناك .. الإنارة ساطعة في جميع الجنبات والزوايا .. ضربات الآلة الكاتبة لا تهدأ ، تعطي لمن يسمعها الانطباع بأن السكرتيرة تعلك الشوينكوم مرافقة إيقاع ضربات الآلة الكاتبة في سرعتها ببلاذة...

من قبل شاهدت موظف مكتب الشؤون الإجتماعية يسحق بقدمه أعقاب السجائرعند المدخل أما اليوم فهو يلقي بها من النافذة .. الوجوه حليقة حتى اللمعان .. ربطات العنق متدلية بعناية فائقة .. رائحة أحدث مركات العطر تفوح من تحت الكوستيمات المكوية بدقة بالغة .. العجوزواقف أمامي .. يسوي طربوشه الأحمر بين الفينة و الاخرى .. ينظر إلى قامته على واجهة المكتب الزجاجية في إعجاب .. بدأ يغمرني شعوربالارتياح ، أنساني بعضا من صداع الانتظارات الطويلة والواهية ... قلت في نفسي ها قد فرج الله كربتنا و بزغ اليوم الموعود ... وفجأة .

سمعت جلبة وضجيجا يصعد مع الأدراج شيئا فشئا .. حشد من الموظفين يرافق سيدة تستشيط غضبا .. رمقني العجوزبنظرة وجلة تنم عن وضع طارئ ثم ضرب كفا بكف وانتصب واقفا مثل جندي فاجأه دوي قذيفة وقال:

إهرب .. إهرب .. هذا نهاركحل ، جات المسخوطة مرة أخرى...

ـ قلت من ؟ الكاتبة المشاغبة ؟

رد ضاربا براحته على فخديه كامرأة في مأتم .

ـ آش من كاتبة!!

قلت في استغراب

ـ من هي ذي إذن ؟

ما كادت كلمة زوجة الرئيس المديرالعام تزهق من فيه الخرب حتى داهمنا جسد امرأة بدينة دكالية القامة ينادونها (الشريفة)... تزبد وترغد وتلعن الشركات وأصل الشركات والمهمات والصفقات وكانت كلمات الموظفين تتقاطرعليها كماء الورد البارد من كل جهة إلا أن مهادنتهم وشروحاتهم الفجة ما كانت تزيدها إلا تعنتا وسخطا...

في تلك اللحظة أدركت حقيقة ما يجري داخل الشركة .. نزلت الأدراج في تثاقل أشبه ما أكون بمقاتل مهزوم منحدرفي تل من الشوك وكان صوتها اللجوج لايزال يتردد في الكولوار "واش مزوج بي ولا بنيويوك يا عباد الله. "

مكناس 1988